المفارقة السياسية (١)

بول ريكور

ترجمة : جورج صدقني

إن ما يرفضه ، للوهلة الأولى ، كل فكر لا يعتقد باستقلال الظاهرة السياسية (Le politique) استقلالاً نسبياً في علاقته بتاريخ المجتمعات الاقتصادي ـ الاجتماعي هو أن مشكلة السلطة السياسية في الاقتصاد الاشتراكي لا تختلف اختلافاً أساسياً عن المشكلة نفسها في الاقتصاد الرأسمالي ؛ وأنها

(١) Le Paradoxe Politique يعالج هذا البحث الذي تقدمه مجلة « المعرفة » لقرائها مفارقات السياسة بين النظرية والتطبيق . وصاحب البحث يعتبر اليوم واحداً من كبار الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين ، بل واحداً من كبار الفلاسفة في العالم . وهو يقوم بتدريس الفلسفة في جامعة باريس .

تفسح المجال لاحتمالات طغيان مشابهة إن لم تكن متعاظمة ، وأنها تقتضي رقابة ديموقراطية مماثلة في الدقة إن لم يكن في المزيد من الصرامة .

يبدو لي أن استقلال الظاهرة السياسية هذا يتلخص في صفتين متعارضتين .
فالظاهرة السياسية تحقق ، من جهة ، علاقة انسانية لا يمكن ردّها الى نزاعات الطبقات ، ولا إلى التوترات الاقتصادية - الاجتماعية في المجتمع بصورة عامة . فان أكثر دولة موسومة بطبقة مسيطرة تكون دولة على وجه التحديد بما تعبّر عن الادارة العميقة لدى الأمة في مجموعها . وهي أيضاً لا تتأثر تأثراً جذرياً ، بما هي دولة ، بالتغيرات التي تعدّ - هي نفسها - مع ذلك جذرية في الميدان الاقتصادي . بهذه السمة الأولى تعرض حياة الانسان السياسية نمطاً من العقلانية النوعية ، لا يمكن ردّها الى ضروب الجدل المستند الى قاعدة من الاقتصاد .

وتظهر السياسة ، من جهة أخرى ، شروراً نوعية ، هي شرور سياسية على وجه التحديد ، شرور السلطة السياسية . وهذه الشرور ليست قابلة لأن تردّ الى غيرها ، وبصورة خاصة الى الضياع (Alienation) الاقتصادي . ومن ثمة يمكن أن يختفي الاستغلال الاقتصادي ويبقى الشر السياسي موجوداً . وفوق ذلك ، يمكن للوسائل ، التي توجدها الدولة كي تضع حداً للاستغلال الاقتصادي ، أن تكون فرصة لسوء استخدام السلطة . ويمكن لهذه الوسائل أن تكون جديدة في تعبيرها ، وفي آثارها ، ولكنها تظل ووسائل دول الماضي وسائل واحدة وحدة أساسية في منطقها الانفعالي .

عقلانية نوعية ، وشر نوعي ، تلك هي الطرافة المزدوجـــة والمتصفة بالمفارقة في الظاهرة السياسية . ومهمة الفلسفة السياسية ، في رأيي ، هي في جلاء هذه الطرافة وايضاح المفارقة فيها . ذلك أن الشر السياسي لا يمكن أن ينبت إلا على العقلانية النوعية في الظاهرة السياسية .

ينبغي على المرء أن يقاوم إغراء المعارضة بين نمطين من التفكير السياسي: الأول الذي يزيد من شأن عقلانية الظاهرة السياسية كما هو الأمر لدى أرسطو وروسو وهيغل، والآخر الذي يلح على عنف السلطة وكذبها وفق النقد الأفلاطوني في « الطاغية » والتبرير الماكيافيلي في « الأمير »، والنقد الماركسي من خلال « الضياع السياسي ».

يجب أن نمسك بهذه المفارقة، ألا وهي أن أعظم الشرور يلتصق بأعظم عقلانية، وأنه يوجد ضياع سياسي لأن الظاهرة السياسية مستقلة استقلالاً نسبياً.

وإذن فان استقلال الظاهرة السياسية هذا هو ماينبغي أن نتكلم فيه في بادىء الأمر.

١ — استقلال الظاهرة السياسية

إن ما يظل الى الابد مثاراً للاعجاب في فكر الإغريق السياسي هو أن أي فيلسوف منهم — ربما باستثناء أبيقور — لم يرض بأن يخرج السياسة من ميدان المعقول الذي كانوا يستكشفونه. فقد عرفوا جميعهم، أو جميعهم تقريباً، أنه إذا كانت الظاهرة السياسية قد وسمت بأنها شريرة، وغريبة، و « أخرى » في نظر العقل ونظر الكلام الفلسفي، وإذا كانت الظاهرة السياسية مردودة الى « الشرير »، حرفياً، فالعقل نفسه هو الذي ينزلق نحو الهاوية. لأنه - حينئذ - لايظل عقلاً يعقل الواقع وعقلاً في الواقع، طالما أن الواقع الانساني واقع سياسي. وإذا لم يكن هناك شيء في وجود البشر السياسي معقولاً، فان العقل ليس واقعياً، وهو يسبح في الهواء، وتعتزل الفلسفة في العوالم الخلفية، عوالم المثل الأعلى والواجب. هذا مالم تسلم به أية فلسفة من الفلسفات الكبرى حتى

عندما تبدأ من محاكمة الوجود اليومي المنحط ، وتشيح بوجهها في البداية عن العالم . فكل فلسفة كبرى تريد أن تفهم الواقع السياسي لتفهم نفسها هي نفسها .

والسياسة لاتكشف عن معناها إلا إذا كان مرماها – غايتها (Telos) – يمكن أن يرتبط بالقصد الأساسي في الفلسفة نفسها ، بالخير وبالسعادة . فلم يكن الأقدمون يفهمون أنه يمكن أن تبدأ السياسة – الفلسفة السياسية – بغير علم غايات (Téléologie) الدولة و « الشيء العام » ، بحيث توضع هي نفسها بالاستناد الى مقصد البشر النهائي . وعلى هذا النحو يبدأ كتاب السياسة لأرسطو : « كل دولة ، حسب ما نعلم ، هي مجتمع ، مبدؤها الرجاء في خير من الخيرات ، شأنها في ذلك شأن كل شركة ، لأن أعمال البشر كلها غايتها ما يعدونه خيراً . وإذن فان هدف المجتمعات كلها أن تجلب لنفسها نفعاً ، والنفع الرئيسي الذي يحوي في ذاته كل المنافع الأخرى يستهدف خيراً أكبر ، فيسمى الدولة أو المجتمع ، فالحياة الخيرة هي التي تلتقي فيها الأخلاق مع السياسة في ترابط متبادل . ان التفكير في استقلال الظاهرة السياسية معناه العثور في غائية الدولة على طريقة هذه الخاصة في الاسهام بتحقيق انسانية الانسان . إن نوعية الظاهرة السياسية لايمكن أن تظهر إلا بواسطة علم الغايات هـذا ، إنها نوعية مرمى ، نوعية قصد . ان البشر يسعون ، بواسطة الخير السياسي ، الى خير لايسعهم أن يبلغوه بطريقة أخرى ، وهـذا الخير جزء من العقل والسعادة . وتؤلف هـذه الملاحقة وهذه الغاية طبيعة (الجماعة) . وطبيعة (الجماعة) هي غايتها ، كما أن طبيعة كل شيء هي غايته » .

بناء على ذلك ، تكون الفلسفة السياسية مقيدة بأن تبحث كيف يمكن

هذا المعنى – الذي هو « غاية » الدولة و « طبيعتها » – الدولة ، من حيث هي كل ، من حيث هي هيئة كاملة ، ومن ثمة كيف تجيء الانسانية الى الانسان بواسطة الهيئة السياسية . والقناعة الأساسية في الفلسفة السياسية كلها هي أن الكائن « الذي يوجد ، بطبيعته وليس نتيجة المصادفة ، دون وطن أي وطن ، هو فرد يثير الاشمئزاز ، أسمى من الانسان بكثير أو أدنى منه بكثير . . . لأن كل فرد لا يحتاج الى الناس الآخرين أو لا يقدر أن يعقد العزم على البقاء معهم ، هو إله أو بهيمة من البهائم ، والميل الطبيعي يحمل البشر جميعاً على العيش في مجتمع من هذا النوع » . اذا كان مصير الانسان لا يتحقق الا بواسطة جسم ، او كل أو جماعة ، تحدد « باكتفائها الذاتي » فهذا يمنعنا من البدء في البحث بالتعارض بين الدولة والمواطن . ووجهة نظر الفلسفة ، هي أن الفرد لا يغدو فرداً إنسانياً إلا في هذا الكل الذي هو « كلية المواطنين » . فعتبة الانسانية هي عتبة المواطنية ، والمواطن ليس مواطناً الا عن طريق « الجماعة » . وعلى هذا النحو ، تمضي الفلسفة السياسية من السعادة ، التي يسعى اليها البشر جميعاً ، الى الغاية الخاصة بالجماعة ، ومن هذه الى طبيعتها من حيث هي كل مكتف بذاته ، ومن هذه الى المواطن . ولأن « الدولة هي موضوع السياسة والحكومة الثابت » ، تنتقل حركة الفكر السياسي البحت من الجماعة الى المواطن وليس العكس : « ان المواطن هو ذلك الذي يسمح له ، في البلاد التي يسكن فيها ، بأن يشارك في التشريع والمناقشة » . وعلى هذا النحو يُميّز المواطن بخاصة السلطة : « لأننا إنمـا نعرّفه عن طريق الإسهام في السلطة العامة » .

وتظهر المواطنية بدورها « المزايا » النوعية الخاصة بهذا الإسهام في السلطة العامة . وهي « المزايا » الخاصة التي تنظم علاقة الحكومة بأناس أحرار ، والتي

هي مزايا طاعة متميّزة من العبودية ، تميّز قيادة الجماعة الجديرة بهذا الاسم من الطغيان . وهكذا ، يمضي الفكر السياسي من الجماعة الى المواطنية ، ومن المواطنية الى الوطنية ، وليس في الاتجاه المعاكس .

هذا هو نظام الفكر الذي يعرضه النموذج القديم . وهذا هو ايضاً نظام الفكر الذي ينبغي على كل فرد أن يفرضه على نفسه ، اذا أراد الحصول على الحق في الكلام كلاماً جدياً في موضوع الشر السياسي . ان كل تأمل في السياسة يبدأ بالمعارضة بين « الفيلسوف » و « الطاغية » ليلقي كل ممارسة للسلطة على عاتق ارادة القوة ، يحبس نفسه الى الأبد في أخلاقية ذات نتائج عدمية . على الفكر السياسي أن يزيح وجه « الطاغية » جانباً ، منذ حركته الاولى على أنه هامشي أو من نطاق الامكانات المخيفة التي لا يمكن اتقاؤها لأن الانسان شرير . ولكن هذا لن يكون موضوع علم السياسة : « من المناسب الاشارة ، في آخر الأمر ، الى الطغيان من حيث كونه أسوأ ضروب الفساد جميعاً وكونه الأقل جدارة بأن يطلق عليه اسم الدستور . ولهذا احتفظنا به الى النهاية » . (أرسطو) .

ان في استقلال الظاهرة السياسية فائضاً عن هذا الكلام الغامض عن المصير الاجتماعي المشترك للحيوان الانساني وعن ولوج الانسان في الانسانية عن طريق المواطنية . انه ، بكلمة أوضح ، نوعية الرابطة السياسية في مقابل الرابطة الاقتصادية . هذه اللحظة الثانية من التفكير تعد أساسية بالنسبة الى ما يليها ، لأن الشر السياسي يكون عندئذ نوعياً ، شأنه في ذلك شأن هذه الرابطة ، وعلاج هذا الشر يكون كذلك ايضاً .

يخيّل إلي أننا لا نستطيع ان نباشر نقد اصالة الحياة السياسية دون أن نحدّد قبل ذلك المجال السياسي تحديداً دقيقاً ونتحقق من صحة التمييز بين الظاهرة

السياسية والظاهرة الاقتصادية فكل نقد يفترض هذا التمييز ولا يلغيه بأية حال من الأحوال .

وما من تفكير يهيء لهذا التعارف بأفضل من تفكير روسو . اننا اذ نجد ونستعيد اعمق « دوافع العقد الاجتماعي » نجد بذات الوقت معنى الظاهرة السياسية بوضعها كذلك . ان العودة الى روسو والعودة بواسطتها إلى الاقدمين — الى « سياسيات » أرسطو بوجه خاص — لابد أن تقدم ، فيما يخيل الي ، القاعدة والخلفية لكل نقد للسلطة ، وهو النقد الذي لايمكنه ان يبـــدأ من عند ذاته .

ان الفكرة العظيمة التي لاتدحض في العقد الاجتماعي هي أن الهيئـــة السياسية تولد من فعل ضمني ، من ضرب من القبول ليس حادثة تاريخية ، ولكنه لا يبدو للعيان الا في التفكير . هذا الفعل ميثاق : ليس ميثاقاً بين الواحد والآخر وليس ميثاق تنازل لمصلحة شخص ثالث غير متعاقد ، هو السلطان الذي يصبح (سلطانا) مطلقاً لانـه ليس متعاقداً ، كلا — انه ميثاق كل واحد مع الجميع ، ميثـاق يقيم من الشعب شعباً ، اذ يجعل منه دولة . ان هـذه الفكرة الرائعة ، التي كثر نقدها وساء فهمهـا كثيراً ، هي المعادلة الاساسية في الفلسفة السياسية : « العثور على شكل من الشركة يدافع عن كل شريك ويصونه في شخصه وأملاكه بكل القوة المشتركة ، شكل به يتحد كل واحد مع الجميع فلا يدين بالطاعة بعد ذلك الا لنفسه ، ويظل حراً كما كان من قبل » . ليس ذلك مقايضة الحرية الهمجية بالامن ، ولكنه الانتقال الى الحياة المدنية عن طريق القانون الذي ارتضاه الجميع .

بوسع المرء ان يقول ما يشاء ان يقول وما ينبغي ان يقول ضد التجريد في هذا الميثاق وضد المثالية والرياء فيه — وهذا صحيح ايضاً، في مكانه وفي موضعه. لكن ينبغي اولاً التعرف في هذا الميثاق الى فعل هو اساس الامة. هذا الفعل الاساسي لايمكن لاي ديالكتيك اقتصادي ان يولده. انه الفعل الذي انشأ السياسة بما هي سياسة.

هذا الميثاق لم يُعقد ؟ إن من طبيعة القبول السياسي — هذا القبول الذي يؤلف وحدة الجماعة الانسانية الموجهة والمنظمة من قبل الدولة — انه لايُسترجع الا في فعل لم يحدث، في عقد لم يعقد، في ميثاق ضمني مضمر لايتجلى إلا في وعي الشعور السياسي، في النظرة الى الخلف في التفكير.

ولهذا السبب ينزلق الكذب بسهولة عظيمة الى الظاهرة السياسية. ان الظاهرة السياسية ميالة الى الكذب لان الرابطة السياسية تلك واقعية المثالية: — هذه المثالية هي مساواة كل واحد امام الجميع، لأن كل واحد إذ يمنح نفسه كاملاً، يصبح الوضع واحداً بالنسبة الى الجميع، وإذ يكون الوضع واحداً بالنسبة الى الجميع، لاتعود هناك أية مصلحة لأي واحد في ان يجعله باهظاً بالنسبة الى الآخرين» — ولكن المساواة امام القانون، المساواة المثالية لكل انسان امام الكل، هي الحقيقة في الظاهرة السياسية، قبل ان تصبح رياء يتستر خلفه استغلال الانسان للانسان. انها هي التي تمنح الدولة واقعيتها. وبالعكس، فان واقعية الدولة، التي لاترتد الى نزاعات طبقة او الى دينامية السيطرة والضياع الاقتصاديين، هي تجلي مشروعية لا يمكن مطلقاً ارجاعها ارجاعاً كاملاً الى اضفاء مصالح الطبقة المسيطرة على دائرة الحق. فما ان تكون هناك دولة، او هيئة سياسية، او تنظيم للجماعة التاريخية، حتى تكون هناك واقعية هذه المثالية.

وهناك وجهة نظر للدولة لايمكن لها أبداً أن تتوافق توافقاً تاماً مع ظاهرة سيطرة الطبقة . فاذا كانت الدولة تقتصر على الاضفاء المثالي لمصالح الطبقة المسيطرة ، فانه لاتبقى هناك دولة سياسية ، ولكن سلطة استبدادية . وحتى الدولة الأشد استبداداً هي دولة ايضاً من حيث أن شيئاً من الخير المشترك بين عموم المواطنين يمر من خلال الطغيان ويتعالى (Transcende) على مصلحة الزمرة أو الزمر المسيطرة . وكذلك فان استقلال الظاهرة السياسية الأصلي وحده يستطيع أن يفسر استخدام الشرعية استخداماًمرائياًلتغطيةالاستغلال الاقتصادي، لأن الطبقة المسيطرة ما كانت لتشعر بالحاجة الى اضفاء مصالحها على اسطورة حقوقية، لو لم تكن هذه الاسطورة الحقوقية شرط وجود الدولة وجوداً واقعياً. فلكي تصبح طبقة ما من الطبقات الدولة ، يجب عليها أن تنفذ مصالحها الى ميدان كلية الحق . ولن يستطيع هذا الحق أن يضع قناعاً يخفي علاقة القوة إلا بمقدار ما تنبع سلطة الدولة نفسها من مثالية الميثاق .

أنا لا أجهل صعوبات مدلولي الإرادة العامة والسيادة لدى روسو . كان روسو قد تحدث في مخطوطة جنيف عن « انزلاق تأسيس الدولة في مهاوي السياسة » (كما أن تأثير النفس على الجسد هو الهوة التي تنزلق اليها الفلسفة في فهمها لتركيب الانسان) . الذنب في هذه الصعوبات ليس ذنب روسو . إنها تنجم عن الظاهرة السياسية في حد ذاتها . ميثاق هو فعل ضمني ، ميثاق يقيم جماعة واقعية ، مثالية للحق تجعل واقعية القوة شرعية ، افتراض جاهز تماماً ليلبس رياء طبقة مسيطرة ، ولكنه قبل أن يتيح فرصة للكذب ، يقيم حرية المواطنين ، حرية تجهل الأحوال الخاصة وفروق السلطان الواقعية وأوضاع الاشخاص

الحقيقية ، ولكنها حرية تأخذ قيمتها من تجريدها ذاته – هذه على وجه التدقيق هي متاهة السياسة .

إن روسو في الصميم هو أرسطو . والميثاق الذي يولد الهيئة السياسية هو غاية المدينة لدى اليونان معبّراً عنها بلغة إرادية وعلى صعيد الميثاق الضمني (على صعيد « كان ») . فحيث يقول ارسطو «طبيعة» ، «غاية» ، يقول روسو « ميثاق » ، « إرادة عامة » . ولكن الأمرين شيء واحد في الصميم . إنها ، في الحالـــين ، نوعية الظاهرة السياسية منعكسة في الشعور الفلسفي . لقد تعرّف روسو على الفعل المصطنع يصدر من ذاتية مثالية ، من « شخص عـام » ، حيث ميّز ارسطو طبيعة موضوعية . غير أن الإرادة العامة لدى روسو موضوعية ، والطبيعـــة الموضوعية لدى ارسطو هي طبيعة الإنسان الذي يطلب السعادة . إن اتفاق هاتين الصيغتين الأساسي يبدو في تقابلها نفسه . فالقضية ، في الحالين ، من خلال غاية الجماعة وميثاق الإرادة العامة المولّد ، قضية إظهار التوافق بين إرادة فردية وعاطفية وإرادة موضوعية وسياسية . وبكلمة موجزة جعل انسانية الانسان تمر عبر الشرعية والقسر المدنيين .

روسو هو ارسطو . ولعله كان ينبغي ان نلاحظ ان هيغل لم يقل قولاً مختلفاً . وهذا هام لأن ماركس، كما سنرى، قد عمد الى نقد الدولة البورجوازية، وكل دولة حسب ظنه ، من خلال فلسفة الحق لهيغل . ففي هـذه الحالة يكون الفكر السياسي في الغرب برمّته ، عبر أركانه الثلاثة : ارسطو وروسو وهيغل ، هو الذي يستدعيه النقد الماركسي للمثول أمامه .

وعندما يرى هيغل في الدولة العقل المتحقق في الانسان ، فانه لا يفكر

في دولة معينة ، ولا في اي دولة كانت ، ولكنه يفكر في هذا الواقع الذي يرى النور من خلال الدول الواقعية ، والذي تبلغه الأمم عندما تجتاز عتبة التنظيم في دولة عصرية ذات اجهزة متمايزة ودستور وإدارة الخ .. وترقى الى مستوى المسؤولية التاريخية ضمن اطار علاقات دولة بدولة . وإذ تُفهم الدولة على هذا النحو تتبدى وكأنها ما تريده الإرادات لأجل تحقيق حريتها : اي تنظيم معقول كلي للحرية . اما اشد عبارات هيغل تطرفاً عن الدولة وأكثرها تحدياً للعقل (Scandaleuses) ، تلك العبارات التي تناولها إريك فيل بالنقد قبل وقت قصير في كتابه حول **هيغل والدولة** (١) ، فينبغي أن تفهم من حيث كونها التعبير الأقصى ، أو النقطة القصوى لفكر قرر أن يضع كل تجلياته (على الدولة) ، لا خارج الواقع السياسي ولكن ضمنه وقد عرف بلاء المعرفة . علينا أن نفهم انطلاقاً من هذا التعبير الأقصى ، كل ما يمكن أن يقال ضد الدولة او ضد ادعاء طائش يستحوذ على قصديتها المعقولية .

٢ ــ السلطة والشر

يوجد ضياع سياسي نوعي لأن الظاهرة السياسية ظاهرة مستقلة . إن الوجه الآخر لهذه المفارقة هو ما يجب ايضاحه الآن .

عقدة المشكلة في أن الدولة إرادة . بوسعنا أن نلح قدر ماينبغي على

---

(١) اذن اذا كان المجتمع هو قاعدة الدولة ومادتها اللاهيولية بصورة مطلقة ، فان العقل الواعي لذاته يكون بجانب الدولة كاملاً : فقد يوجد خارجها اخلاق مشخصة، وتقليد ، وعمل ، وحق مجرد ، وعاطفة ، وفضيلة ، لكن لايمكن أن يوجد عقل . الدولة وحدها تَعقيل ، الدولة وحدها يمكن أن تعقل بصورة كلية» (٦٨) .ويمكن قراءة تعريف الدولة في المصدر نفسه ص ٤٥ .

العقلانية التي تجيء الى التاريخ عن طريق الظاهرة السياسية – فهذا صحيح ، لكن اذا كانت الدولة معقولة من حيث كونها قصداً ، فانها تتقدم عبر التاريخ بفعل القرارات. فليس من الممكن ألا ندخـــل في تعريف الظاهرة السياسية فكرة القرارات ذات الأثر التاريخي ، أي التي تغير بطريقة دائمة مصير الجماعة الانسانية التي تنظمها هذه الدولة وتديرها . الظاهرة السياسية تنظيم معقول ، والسياسة قرار : تحليل مواقف محتمل ، رهان محتمل على المستقبل . ان الظاهرة السياسية لاتوجد بغير السياسة .

إن الظاهرة السياسية تأخذ معناها فيما بعد في التفكير ، في « التأمل التراجعي » ، أما السياسة فتُلعَب بمقدار في « التنقيب » ، في المشروع ، أي في حل رموز الحوادث المعاصرة حلاً غير مؤكد وفي صلابة العزم في وقت واحد . ولهذا اذا كانت الوظيفة السياسية ، واذا كانت الظاهرة السياسية متواصلة فيها ، فانه يمكننا القول بمعنى من المعاني إن السياسة لاتوجد إلا في اللحظات الكبرى في « الأزمات » ، في « الانعطافات » ، في عقد التاريخ .

بيد أنه لايمكننا ان نعرّف الظاهرة السياسية دون ان ندخل فيها لحظة القرار الإرادية ، ولا يمكننا ايضاً الكلام في « القرار السياسي » دون ان نفكر في السلطة .

إننا ، إذ ننتقل من الظاهرة السياسية الى السياسة ، ننتقل من الحدوث الى الحوادث ، من السيادة الى من يسود ، من الدولة الى الحكومة ، من العقل التاريخي الى السلطة .

وعلى هذا النحو تتجلى نوعية الظاهرة السياسية في نوعية وسائلها . فالدولة، إذا نظر اليها من زاوية السياسة ، هي المحكمة التي تملك احتكار القسر المادي

الشرعي . وتشهد صفة الشرعي بأن تعريف الدولة بوسيلتها النوعية يحيل على تعريف الدولة نفسها بغايتها وشكلها . لكن ، حتى لو استطاعت الدولة في يوم من الأيام، بضربة حظ ، ان تصبح وأساس شرعيتها شيئاً واحـــداً – كأن تصبح سلطة القانون – فان هذه الدولة تظل ايضاً احتكار القسر . وتظل ايضاً سلطة البعض على الكل ، انها تجمع ايضاً بين الشرعية ، أي القدرة المعنوية على « الفرض » ، وعنفاً بلا استئناف ، أي القدرة الطبيعية على الإكراه .

وعلى هذا النحو نصل الى فكرة **السياسة** نفسها بكل شمولها ، فنقول انها مجموعة الفعاليات التي تهدف الى ممارسة السلطة ، ومن ثمة اقتناص السلطة والمحافظة عليها ايضاً . وشيئاً فشيئاً تصبح السياسة كل فعالية تهدف الى التأثير في توزيـــع السلطة او يكون ذلك نتيجة لها وحسب (١) .

إن السياسة – السياسة التي تعرف بالنسبة الى السلطة – هي التي تطرح مشكلة الشر السياسي . ان هناك مشكلة شر سياسي ، لأن هنـاك مشكلة نوعية في السلطة .

هذا لايعني ان السلطة هي الشر . ولكن السلطة عظمة للانسان ميالة الى الشر ميلاً عظيماً . ولعلها اعظم فرصة أتيحت للشر ، واعظم دليل على الشر في التاريخ . وهذا مردّه الى ان السلطة أمر عظيم جداً ، وان السلطة هي أداة العقلانية التاريخية في الدولة . هذه المفارقة لاينبغي في أية لحظة ان تفلت منا .

وقد اعترف بهذا الشر النوعي في السلطة اعظم المفكرين السياسيين وهم

---

(١) يطلق ماكس فيبر اسم السياسة على « مجموعة الجهود الهادفة الى الاسهام في السلطة ، أو التأثير في توزيع السلطة ، سواء كان ذلك في داخل الدولة أو بين الدول » (Politik Als Beru) .

يشكلون مجموعة ذات أثر عظيم . فأنبياء اسرائيل وسقراط بحسب **غورجياس** يلتقون في هذه النقطة التقاء تاماً . **والأمير** لماكيافيل ، **ونقد فلسفة الحق عند هيغل** لماركس ، **والدولة والثورة** للنين و ... تقرير خروشوف ، هذه الوثيقة الممتازة عن الشر في السياسة - كلها تقول في الصميم الشيء نفسه في إطارات لاهوتية وفلسفية مختلفة اختلافاً جذرياً . وهـذا التقارب نفسه يشهد بثبات الإشكالية (La problématique) السياسية عبر التاريخ . ونحن ، بفضل هذا الثبات نفهم هذه النصوص وكأنها حقيقة لكل الأزمان .

وإنه لمن المذهل ان تكون أقـدم نبوءة مكتوبة في التوراة ، نبوءة عاموس ، تدين بصورة أساسية جرائم سياسة وليس أخطاء فردية (١) .قد يحاول المرء ارجاع الشر السياسي الى فكرة بائدة عن خطيئة سابقة على فردية العقاب والذنب ، ولكن عليه في الواقع ان يرى فيها نتيجة لممارسة السلطة . ان الوجود السياسي للانسان هو الذي يعطي للخطيئة بعدها التاريخي ، وقدرتها التخريبية ، وإذا جرؤنا على القول ، عظمتها . ان موت يسوع ، وكذلك موت سقراط ، يمر بقرار سياسي ، بمحاكمة سياسية . انها محكمة سياسية ، المحكمة نفسها التي كفلت بنظامها وطمأنينتها النجاح التاريخي **للانسانية والكلية** . ان السلطـة السياسية الرومانية هي التي نصبت الصليب : « وتألم في عهد بيلاطس البنطي » .

وعلى هذا النحو ، تبدى الخطيئة في السلطة ، وتكشف السلطة الطبيعة الحقيقية في الخطيئة التي ليست لذة، ولكنها كبرياء قدرة شر ناجم عن الملك والسلطة.

---

(١) عاموس ١ - ٣ - ١٥ : ... لانهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد ... لانهم سبوا سبياً كاملاً لكي يسلموه الى أدوم ... لانه تبع بالسيف أخاه وأفسد مراحمه... لا أرجع عنه لانهم شقوا حوامل جلعاد لكي يوسعوا تخومهم .

ومعنى **غورجياس** ليس شيئاً آخر . بل يمكن القول ان الفلسفة السقراطية والأفلاطونية قد وُلدت جزئياً من تفكير في « **الطاغية** » ، أي في السلطة دون قانون ودون رضى من جانب الرعية . كيف يكون الطاغيـــة — وهو عكس الفيلسوف — ممكناً ؟ إن هذا السؤال يمس الفلسفة في الصميم ، لأن الطغيان لا يكون ممكناً دون تزييف **الكلمة** ، أي هذه السلطة — البشرية بالذات — على قول الأشياء وعلى التواصل مع البشر . إن حجج افلاطون في **غورجياس** كلها تستند على هذا الاقتران بين فساد الفلسفة ممثلاً بالسفسطائية وفساد السياسة ممثلاً بالطغيان . ان الطغيان والسفسطائية ليؤلفان زوجاً شنيعـــاً . وهكذا يكشف أفلاطون مظهراً من مظاهر الشر السياسي ، مختلفاً عن القدرة ، ولكنه متصل بها اتصالاً وثيقاً ، ألا وهو « التملق » أي فن اغتصاب الاقتاع بوسائل غير الحقيقة . وعلى هذا النحو يظهر الصلة بين **السياسة واللاحقيقة** . وان هذا ليمضي بعيداً ، اذا كان صحيحاً ان الكلمة هي بيئة الانسانية وقوامها ، وهي **اللوغوس الذي** يجعل الانسان يماثل الانسان ، والذي يقيم التواصل . وعلى هذا النحو يقوم الكذب والتملق واللاحقيقة — وهي الشرور السياسية بالذات — بتدمير الانسان في أصله الذي هو كلمة ، وقول ، وعقل .

هذا إذن تأمل مزدوج في كبرياء القدرة وفي اللاحقيقة ، يكشف فيهما شرين متصلين بماهية السياسة .

وإني لأعثر من جديد على هذا التأمل المزدوج في ذينك الأثرين العظيمين من آثار الفلسفة السياسية : أولاهما **الأمير** لماكيافيل و**الدولة والثورة** للينين اللذين يشهدان بثبات اشكالية السلطة عبر تباين الأنظمة ، وعبر تطور التقنيات وتحولات الشروط الاقتصادية والاجتماعية . ان لمسألة السلطة ، وممارستها ، والفوز بها ،

والدفاع عنها ، وشيوعها ، لاستقراراً عجيباً يحمل على الاعتقاد عن طيب خاطر بثبات طبيعة انسانية .

لقد قيل كثير من السوء بحق « الماكيافيلية » . غير أننا اذا أردنا أن نحمل الأمير ، كما ينبغي ، على محمل الجد ، فاننا نكتشف أننا لا نستطيع أن نتحاشى بسهولة مشكلته ، ألا وهي على وجه التحديد إقامة سلطة جديدة ، ودولة جديدة . إن الأمير هو المنطق الذي لا يقهر في العمل السياسي . انه منطق الوسائل ، انه التقنية الخالصة في الحصول على السلطة وفي المحافظة عليها . هـذه التقنية التي تسيطر عليها سيطرة تامة العلاقة السياسية الجوهرية ، علاقة صديق – عدو ، علاقة يمكن للعدو فيها أن يكون خارجياً أو داخلياً ، الشعب ، او النبلاء ، او الجيش ، او المستشار ، وكل صديق فيها يمكن أن يصبح عدواً والعكس ايضاً . انهـا تعزف على معزف عريض يبدأ بالقدرة العسكرية وينتهي بعواطف الخوف والعرفان والانتقام والوفاء . إن الأمير ، إذ يعرف كل حركات القدرة ، وإذ يعرف اتساع معزفه وتنوعه وتضارب ألحانه ، سيكون مخططاً استراتيجياً وعالماً نفسياً ، **أسداً وثعلباً** . وعلى هذا النحو يطرح ماكيافيل مشكلة العنف السياسي الحقيقية ، لا مشكلة العنف العقيم ، ولا مشكلة التعسف وجنون الهوى ، بل مشكلة العنف المحسوب والمحدود والمقيس وفق عين الخطة التي تهدف الى اقامة دولة تدوم . لا ريب في أنه يمكن القول ان العنف المؤسّس يضع نفسه بهـذا الحساب تحت حكم الشرعية القائمة . ولكن هذه الشرعية القائمة ، هذه «الجمهورية» ، موسومة منذ الأصل بالعنف الذي أفلح . فعلى هذا النحو ولدت الأمم كلها ، والسلطات بأسرها ، والانظمة جميعاً . وقد تلاشت ولادتها العنيفة في الشرعية الجديدة التي ولدوها ، ولكن هذه الشرعية الجديدة تحتفظ بشيء من الجواز ،

بشيء من التاريخي بالمعنى الدقيق للكلمة ، لاتنفك ولاتنها العنيفة تربطها به .

وإذن فان ماكيافيل قد أظهر للنور علاقة السياسة بالعنف ، وهنا تكمن نزاهته وصدقه .

وبعد ذلك بعدة قرون يعود ماركس ولينين الى موضوع يمكن القول بأنه افلاطوني ، ألا وهو « الشعور الكاذب » . ويخيل إلي في الواقع أن أمتع ما في النقد الماركسي للسياسة والدولة الهيغليتين ، ليس في تفسيره الدولة بعلاقات السيطرة بين الطبقات ، ومن ثمة ارجاع الشر السياسي الى شر اقتصادي — اجتماعي ، وانما هو في وصف الشر بأنه شر نوعي في السياسة . بل انني لأرى أن أكبر ضرر يلحق بمؤلفات الماركسية — اللينينية كلها ويثقل على الانظمة التي ولدتها الماركسية ، هو هذا الارجاع للشر السياسي الى الشر الاقتصادي . ومن هنا الوهم بأن المجتمع المحرر من تناقضات المجتمع البورجوازي يكون محرراً من الضياع السياسي ايضاً . وجوهر نقد ماركس [1] ، هو ان الدولة ليست ماتزعم لنفسها ، وأنها لاتستطيع ان تكون كذلك . ماذا تزعم لنفسها ؟ اذا كان هيغل على حق ، فان الدولة تكون التوفيق ، التوفيق على صعيد عال بين مصالح وأفراد غير قابلة للتوفيق على الصعيد الذي يسميه هيغل المجتمع المدني ، وندعوه الصعيد الاقتصادي — الاجتماعي . ان عالم العلاقات الخاصة المتنافر تقوم محكمة الدولة العليا فيه بدور الحكم وتجعله عقلانياً . فالدولة هي الوسيط وهي ، من ثمة ، العقل . وكل واحد منا يحصل على حريته من حيث هي حق من خلال محكمة الدولة . إنما أنا حر سياسياً . وعندما يقول هيغل ان الدولة تمثيلية (Représentatif) ، فانما يقول ذلك بهذا المعنى : فهي توجد في **التمثيل** (Représentation) ، والانسان

---

(١) انظر ج . إ كالفيز ، تفكير كارل ماركس ، الفصل المتعلق بالضياع السياسي .

يتمثل نفسه (se représente) فيها . ان جوهر نقد ماركس هو إدانة وهم في هذا الادعاء . فالدولة ليست العالم الحقيقي للانسان ، ولكنها عالم آخر ، وعالم غير واقعي . انها لا تحلّ التناقضات الواقعية الا ضمن حق وهمي متناقض بدوره مع العلاقات الواقعية بين البشر .

إن ماركس يعثر على مشكلة العنف انطلاقاً من هذا الكذب الجوهري ، من هذا التنافر بين الادعاء والوجود الحقيقي . لأن السيادة مضطرة إلى أن تتخذ لنفسها دعم سلطان واقعي مشخص اختباري ، لأنهـا ليست واقعة الشعب في واقعيته المشخصة بل هي عالم متصوّر في الحلم . إن نزعة الحق المثالية لا تجد لنفسها سنداً في التاريخ إلا نزعة تعسف الأمير الواقعية . هو ذا الميدان السياسي ينقسم بين مثال السيادة وواقع السلطة ، بين السيادة والسيد ، بين الدستور والحكومة والشرطة ذاتها . أما أن ماركس لم يعرف سوى الملكية الدستورية فهو أمر قليل الأهمية . ذلك أن الانفصام بين الدستور والملك والحق والتعسف ، تناقض داخلي في كل سلطة سياسية . هذا صحيح في الجمهورية أيضاً . أنظروا كيف سرق أصواتنا في العـام الماضي سياسيون بارعون عكسوا السلطة في الواقع ضد سيادة هيئة الناخبين . إن السلطان يميل دائماً الى اغتصاب السيادة اغتصاباً . وهذا هو الشر السياسي الجوهري . ما من دولة توجد دون حكومة وإدارة وشرطة . وظاهرة الضياع السياسي هـذه أيضاً تنفذ إلى كل الأنظمة عبر الأشكال الدستورية جميعاً . إن المجتمع السياسي هو الذي يتضمن هذا التناقض الخارجي بين ميدان مثالي لعلاقات الحق وميدان واقعي للعلاقات الجماعية — وهذا التناقض الداخلي بين السيادة والسلطان ، بين الدستور والسلطة ، وفي الحد الأقصى الشرطة . إننا نحلم بدولة يُحَلّ فيها التناقض الجذري الموجود بين الكلية

التي تهدف إليها الدولة وبين الخصوصية والتعسف الذي يلحق بها واقعياً . إن الشر هو أن هذا الحلم عصيّ على التحقيق .

من المؤسف أن ماركس لم ير طابع الاستقلال في هـــذا التناقض . لقد رأى فيه مجرد بنية فوقية : أي انتقال وضع التناقضات المنتمية إلى الصعيد التحتي في المجتمع الرأسمالي إلى صعيد مضاف زيادة ، وأخيراً نتيجة من نتائج تعارض الطبقات . فالدولة ليست بعد ذلك سوى أداة عنف الطبقة ، في حين أنه ربما كان للدولة دوماً خطة ، ومشروع يتجاوز الطبقات ، وأنه ربما كان الأذى الخاص بها هو ما يقابل هذه الخطة الكبرى . وإذ تُرَدّ الدولة ، على هذا النحو ، إلى وسيلة قمع في يد الطبقة المسيطرة، فإن وهم الدولة أن تكون التوفيق الكلي ، لا يكون بعد ذلك سوى حالة خاصة من هذه النقيصة في المجتمعات البورجوازية التي لا تستطيع أن تتحمل قصورها الذاتي أو أن تحـــل تناقضها إلا بالفرار إلى حلم الحق .

أعتقد بأنه يجب التأكيد،بخلاف ماركس ولينين ، بأن الضياع السياسي ليس قابلاً للإرجاع إلى شيء آخر ، بل مقوّم من مقوّمات الوجود الإنساني ؛ وبأن نمط الحياة السياسية – بهذا المعنى – يقتضي الانشقاق بين حيـــاة المواطن المجرّدة وبين الحياة المشخصة في الأسرة والعمل . وإني لأعتقد أيضاً بأننا نتقد ، على هذا النحو ، خير ما في النقد الماركسي ، الذي يلحق بنقد السلطة لدى ماكيافيل وأفلاطون وفي التوراة .

لا أريد سوى تقرير خروشوف برهاناً على ذلك . إن ما يبدو لي أساسياً ، هو أن النقد الموجه الى ستالين فيه ، ليس له معنى إلا اذا كان ضياع السياسة ضياعاً مستقلاً لا يقبل الإرجاع الى ضياع المجتمع الاقتصادي . فكيف

يمكن للمرء أن ينتقد ستالين وأن يستمر في تأييد الاقتصاد الاشتراكي والنظام السوفيتي إذا لم يكن الأمر كذلك؟ إن تقرير خروشوف لا يكون ممكناً دون نقد السلطة وعيوب السلطة. لكن بما أن الماركسية لا تفسح مجالاً لإشكال مستقل للسلطة، فإنها تتقهقر نحو الحكاية الطريفة والنقد ذي طابع التهذيب الأخلاقي. لقد أطال توليياتي لسانه أكثر من اللازم يوم قال إن تفسيرات تقرير خروشوف لا تقنعه وإنه يسأل كيف تكون ظاهرة ستالين ممكنة في النظام الاشتراكي. أما الجواب، فليس بالإمكان إعطاؤه إياه، لأن هذا الجواب لا يمكن أن يصدر إلا من نقد للسلطة الاشتراكية لم يتم، وربما لن يتم في إطار الماركسية، على الأقل طالما أن الماركسية **ترجع كل صنوف الضياع إلى الضياع الاقتصادي والاجتماعي**.

أريد أن يكون واضحاً تمام الوضوح مرة واحدة وإلى الأبد أن موضوع الشر السياسي الذي عرضناه لا يؤلف بأي حال «تشاؤماً» سياسياً، ولا يبرر أية «انهزامية» سياسية. ثم إن عنواني متشائم ومتفائل يجب أن يحذفا من التفكير الفلسفي. إنما التشاؤم والتفاؤل مزاجان ولا علاقة لهما بغير علم الطباع، أي ليس لنا ما نصنعه بهما هنا. لكن بوجه خاص إن صفاء البصيرة بإزاء الشر الناجم من السلطة لا يمكن أن يكون منفصلاً عن تفكير عام في الظاهرة السياسية. وهذا التفكير يكشف أن السياسة لا يمكن أن تكون محلاً لأعظم شر إلا بسبب مكانتها الرفيعة في الوجود الإنساني. إن عظم الشر السياسي هو مقياس وجود الإنسان سياسياً. وإن تأملاً في الشر السياسي، يقرّبه من الشر الجذري، ويجعل منه التقريب الأكثر جواراً من الشر الجذري، ينبغي له، أكثر من أي تأمل آخر، أن يبقى غير قابل للانفصال عن دلالة

السياسة – تلك الدلالة الجذرية هي الأخرى . إن كل إدانة للسياسة بأنها سيئة هي إدانة كاذبة ، سيئة النية ، تغفل أن تضع هذا الوصف ضمن بعد الحيوان السياسي . إن تحليل الظاهرة السياسية ، كعقلانية للإنسان آخذة في السير ، لم يبلغ ، ولكنه لا ينفك يفترضه التأمل في الشر السياسي سلفاً . وعلى العكس فان الشر السياسي ليس خطيراً إلا لأنه شر هذه العقلانية ، لأنه الشر النوعي في هذه العظمة النوعية .

إن النقد الماركسي للدولة بصورة خاصة لايحذف تحليل السيادة من روسو الى هيغل ، ولكنه يفترض سلفاً حقيقة هذا التحليل . فلو لم يكن للارادة العامة (روسو) نصيب من الحقيقة ، ولو لم يكن هناك علم غايات التاريخ من خلال « الاستئناس المستوحش » (l'insociable sociabilité) وبواسطة هذه « الحيلة من العقل » التي هي العقلانية السياسية (كانت) ، ولو ان الدولة لم تكن « ممثلة » لانسانية الانسان ، لما كان الشر السياسي خطيراً حينذاك : إن الدولة هي العظمة الانسانية الأكثر تعرضاً للشر ، والأكثر تلقياً لتهديده ، والأكثر ميلاً اليه لأن الدولة هي تعبير معين عن عقلانية التاريخ ، وانتصار على أهواء الانسان الفرد وعلى المصالح « المدنية » وحتى على مصالح الطبقة .

إن « الشر » السياسي هو ، بالمعنى الدقيق ، جنون العظمة ، أي جنون ماهو عظيم – عظمة السلطة وذنبها !

ومن هنا لايستطيع الانسان أن يتجنب السياسة ، إذ بهذا يتجنب انسانيته ذاتها . فالانسان عبر التاريخ وبواسطة السياسة يقف وجهاً لوجه تجاه عظمته وذنبه .

أو يمكن المرء أن يستنتج « انهزامية » سياسية من هذه البصيرة الصافية ؟ الأحرى بهذا التفكير ان يقود الى **اليقظة** السياسية . هنا يلحق التفكير ، إذ ينهي دورته الكبرى ، بالحياة اليومية ويخطو من النقد الى العمل .

٣ ـ مشكلة السلطة في النظام الاشتراكي

إذا كان تحليلنا لمفارقة السلطة صحيحاً ، وإذا كانت الدولة اكثر عقلانية من الفرد وأشد أهواء منه في الوقت نفسه ، فان مشكلة الديموقراطية الكبرى تكون مشكلة **مراقبة** الدولة من قبل الشعب . ان مشكلة مراقبة الدولة هذه ، لمشكلة لاترد الى غيرها ، كما أن عقلانية الدولة لاترد الى التاريخ الاقتصادي ـ الاجتماعي ، وكما أن خبثها لا يرد الى تناقضات الطبقات . إن مشكلة مراقبة الدولة هذه تتلخص في مايلي : ابتكار تقنيات مؤسسية مخصصة لجعل ممارسة السلطة ممكنة ، وسوء استخدام السلطة غير ممكن . وان مدلول « مراقبة » ينبع مباشرة من المفارقة المركزية في حياة الانسان السياسية . انه حل هذه المفارقة حلاً عملياً ، حلاً يهدف ، في الواقع الى ان تكون الدولة وألا تكون أكثر من اللازم ؛ أن تدير وتنظم وتقرر ليتسنى للحيوان السياسي نفسه أن يوجد ؛ ولكن أن يصبح الطاغية احتمالاً غير وارد .

ان الفلسفة السياسية التي تقر بنوعية السياسة ـ نوعية وظيفتها ونوعية شرها ـ **هي** الفلسفة الوحيدة القادرة على طرح مشكلة المراقبة السياسية طرحاً صحيحاً .

ولهذا السبب يبدو لي أن ارجاع الضياع السياسي الى الضياع الاقتصادي هو نقطة الضعف في تفكير الماركسية السياسي . وفي الواقع ، لقد قاد هذا

الارجاع للضياع السياسي الماركسية – اللينينية الى ان تحل محل مشكلة مراقبة الدولة مشكلة أخرى ، ألا وهي مشكلة تلاشي الدولة . إن هذا الإبدال – فيما يخيل إلي – مبيء في نتائجه . فهو يؤجل نهاية شر الدولة الى مستقبل غير محدد ، في حين أن المشكلة السياسية العملية الحقيقية هي مشكلة تضييق حدود هذا الشر في الحاضر ، إذ عندئذ تحل محل اخلاقية للعنف محدودة براءة محولة على يوم المعاد . فنظرية تلاشي الدولة تفيض بالوعود المؤجلة كما تفيض بالتراخي الآن . إن نظرية تلاشي الدولة في المستقبل تستخدم غطاء لاستمرار الارهاب وبديلاً عنه . ان نظرية تلاشي الدولة الموقت تغدو ، بمفارقة مؤذية ، خير تبرير لإطالة أمد ديكتاتورية البروليتاريا إطالة لانهاية لها ، وتكون مهد الاستبدادية .

وينبغي تماماً أن نرى ان نظرية تلاشي الدولة نتيجة منطقية لارجاع الضياع السياسي الى الضياع الاقتصادي . فاذا كانت الدولة جهاز قمع ينشأ من منازعات الطبقات ويعبر عن سيطرة طبقة من الطبقات ، فان الدولة ستختفي مع الآثار الأخيرة لانقسام المجتمع الى طبقات .

بيد أن السؤال هو ان نعرف إذا كانت نهاية ملكية وسائل الانتاج ملكية خاصة يمكن أن تؤدي الى نهاية صنوف الضياع جميعاً . فربما لم تكن الملكية نفسها سوى شكل ممتاز من أشكال سلطة الانسان على الانسان ؛ وربما لم يكن المال نفسه سوى وسيلة من وسائل كثيرة أخرى للسيطرة . وربما كانت عين روح السيطرة هي التي تعبر عن نفسها في الاستغلال عن طريق المال ، وفي الطغيان البيروقراطي ، وفي الديكتاتورية الثقافية ، وفي النزعة الاكليريكية .

مهما يكن من امر الوحدة الخفية بين صفوف الضياع كلها – وهي ليست

موضوع حديثنا هنا – فان ارجاع الشكل السياسي الى الشكل الاقتصادي هو المسؤول مسؤولية غير مباشرة عن أسطورة تلاشي الدولة .

صحيح أن ماركس ، وانجلز ، ولينين ، قد جربوا ان يقيموا هذه النظرية على اساس من التجربة . فكومونة باريس فسروها على انها وعد وبداية لتحقيق نظرية تلاشي الدولة تحقيقاً تجريبياً . انها تدل في نظرهم على ان ديكتاتورية البروليتاريا يمكن ان تكون حقاً شيئاً يختلف عن مجرد نقل سلطة القمع لدى الدولة الى أيد أخرى ، وإنما هي تقويض آلة الدولة بما هي « قوة خاصة » بالقمع . فاذا كان الشعب المسلح يحل محل الجيش الدائم ، وإذا كانت الشرطة قابلة للتسريح في أية لحظة ، وإذا كانت البوروقراطية قد هُدمت أسوارها من حيث كونها هيئة منظمة وردّت الى أخفض وضع مأجور ، حينئذ تحل القوة العامة النابعة من أكثرية الشعب محل القوة الخاصة بالقمع لدى الدولة البورجوازية وتتطابق بداية تلاشي الدولة مع ديكتاتورية البروليتاريا . « انه لمن المستحيل الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية دون العودة الى حد ما الى الديموقراطية البدائية » كما يقول لينين . وإذن فان تلاشي الدولة معاصر لديكتاتورية البروليتاريا بمقدار ماتكون هذه الديكتاتورية ثورة شعبية حقاً ، تحطم أجهزة القمع في الدولة البورجوازية . ان ماركس يستطيع حتى ان يقول : وان الكومونة لم تعد دولة بمعنى الكلمة الدقيق » .

وإذن فان نظرية تلاشي الدولة ، في تفكير ماركس ولينين ، لم تكن نظرية مرائية ، بل صادقة مخلصة . قليلون هم الأناس الذين انتظروا من الدولة هذا القدر الضئيل مثل كبار الماركسيين : تقول الرسالة الى بيل : « طالما ان البروليتاريا بحاجة الى دولة ، فذلك ليس لأجل الحرية بل لأجل قمع خصومها .

ويوم يصبح الكلام في الحرية ممكناً ، تكف الدولة عن الوجود من حيث هي دولة » .

لكن إذا كان تلاشي الدولة هو مقياس الصحة تمتع بها ديكتاتورية البروليتاريا ، فان السؤال يطرح نفسه مرآ : لماذا لم يتطابق تلاشي الدولة مع ديكتاتورية البروليتاريا واقعياً ؟ لماذا عززت الدولة الاشتراكية سلطة الدولة واقعياً ، الى درجة تحقيق البديهية التي كان ماركس يؤمن بصدقها على الثورات البورجوازية وحدها : « لم تصنع الاضطرابات كلها شيئاً سوى جعل هذه الآلة أكثر كمالاً بدلاً من تحطيمها » (**الثامن عشر من بروميير**) .

ان محاولة الاجابة عن هذا السؤال يعني ايضاً اعطاء تقرير خروشوف القاعدة التي يفتقر اليها . لأن هذه المحاولة تعني تفسير كيف امكن لظاهرة ستالين أن تكون في النظام الاشتراكي .

ان فرضيتي ، كما يطرحها التفكير السابق ، هي ان ستالين كان ممكناً ، لأنه لم يعترف بثبات اشكالية السلطة في الانتقال من المجتمع القديم الى الجديد ، ولأنه قد ظن بأن الدولة موقتة ، ولأن مشكلة تلاشي الدولة قد أحلت محل مشكلة مراقبتها .

وبكلمة موجزة ، ان فرضيتي هي أن الدولة لايمكن أن تتلاشى . ونظراً لعدم امكان تلاشيها ، فانه يجب ان تقوم بمراقبتها تقنية مؤسسة خاصة .

يخيل إلي أنه ينبغي المضي الى أبعد من ذلك ايضاً والقول ان الدولة الاشتراكية تتطلب مراقبة شعبية يقظة أكثر من الدولة البورجوازية ، وذلك على وجه التحديد لان عقلانيتها أعظم ، ولانهـــا توسع نطاق الحساب والتقدير لتطبقها على قطاعات من الحياة البشرية متروكة ، في مكان آخر أو من قبل ،

للمصادفة والارتجال. ان العقلانية في دولة تأخذ بالتخطيط ، دولة تأخذ على عاتقها أن تمحو منازعات الطبقات على المدى الطويل ، بل دولة تطمح الى وضـــع حد لانقسام المجتمع الى طبقات ، لهي عقلانية اعظم ، وسلطتها اعظم ايضاً، والوسائل التي تقدمها للطغيان اعظم على حد سواء.

ويخيل إلي أن اظهار امكانات الضياع السياسي الجديدة، المرتبطة بالنضال نفسه ضد الضياع الاقتصادي وبتعزيز سلطة الدولة الناجم عن هـــذا النضال ، اظهاراً يتسم بصفاء بصيرة وباستقامة كاملين ، ينبغي أن يكون مهمة نقد السلطة الاشتراكية.

وها هي ذي بعض الاتجاهات التي يمكن لهذا البحث في السلطة في النظام الاشتراكي أن يسلك فيها :

١ – ينبغي ان نرى اولاً الى أي حد تكون «ادارة الأشياء» بالضرورة «حكم للأشخاص» ، والى اي حد يعني التقدم في ادارة الأشياء زيادة في سلطة الانسان السياسية على الانسان.

فعلى سبيل المثال يتضمن التخطيط اختياراً ذا طابع اقتصادي ، يتعلق بنظام الأفضلية في ارضاء الحاجات وتحريك وسائل الانتاج . ولكن في هـــذا الاختيار فائضاً عن الاقتصاد . انه تابع لسياسة عامة ، أي لمشروع طويل المدى يتعلق بتوجيه الجماعة البشرية المنخرطة في تجربة التخطيط . وتتعلق نسبة القسم المعاد استثماره والقسم المستهلك، ونسبة حاجات الثقافة والحاجات المادية في توازن الخطة العام ، «بنظرة استراتيجية اجمالية» ، فيها يدخل الاقتصاد في السياسة . ان الخطة هي تقنية موضوعية في خدمة مشروع اجمالي ، مشروع تديني تحركه قيم ضمنية . وبكلمة موجزة ، مشروع يتعلق في نهاية التحليل بانسانية الانسان.

نفسها . ولهذا كانت الظاهرة السياسية روح الظاهرة الاقتصادية بما هي معبرة عن الارادة والسلطة .

لا يمكن لادارة الأشياء اذن ان تحل محل حكم الاشخاص ، لأن التقنية المعقولة –المتعلقة بتنظيم حاجات الانسان واعماله على مستوى الدولة الاكبر– لايمكنها أن تتحرر من كل اطار أخلاقي ثقافي. ثم ان السلطة السياسية هي المرجع الاخير الذي يقوم بالتوفيق بين سلالم الأفضلية وبين الامكانات التكنولوجية ، بين مطامع الجماعة الانسانية الكامنة وبين الوسائل التي أبرزتها معرفة القوانين الاقتصادية . ان هذا الترابط بين الاخلاق والتقنية في « مهمة » التخطيط هو السبب الاساسي الذي يجعل ادارة الاشياء تستلزم حكم الاشخاص .

٢ – ينبغي ان نبين بعد ذلك كيف أن هذا التعزيز في سلطة الدولة ، المرتبط باتساع اختصاصات الدولة الاشتراكية بالنسبة الى الدولة البورجوازية ينمي اوضاعاً لسوء استخدام السلطة خاصة بها بما هي دولة اشتراكية .

فيكون هذا تطبيقاً للفكرة المعروضة آنفاً القائلة ان الدولة الاكثر عقلانية تتاح لها فرص أكثر لاستثارة الاهواء .

وقد سبق لانجلز أن بيّن في كتابه آنتي دوهرنغ ان تنظيم الانتاج سيظل تحكمياً وقمعياً حتى بعد نزع الملكية من المالكين السابقين طالما بقي تقسيم العمل القديم وبقيت صنوف الضياع الاخرى التي تجعل العمل عبئاً لامسرة . ويظل توزيع العمل والتعلق به ، عندما لايكون هذا العمل عفوياً ، يستند الى القسر ، وهذا القسر مرتبط ، على وجه الضبط ، بالانتقال من المصادفة الى العقلانية .

على هذا النحو تغدو غواية العمل الاجباري احدى الغوايات الكبرى في

الدولة الاشتراكية . وهذه الدولة هي اقل الدول مناعة ضد هذه الغواية ، لان التخطيط يمنحها ايضاً احتكار القسر النفسي احتكاراً **اقتصاديا** (فالثقافة، والصحافة ، والدعاية داخلة في قلب الخطة ، ومن ثمة فهي محدودة **اقتصاديا** من قبل الدولة). ان الدولة الاشتراكية تجد اذن تحت تصرفها مختزن الوسائل كاملاً ، بما فيها الوسائل النفسية ، بدءاً من الحافز والمنافسة وانتهاء بالنفي .

وتضاف الى هـــذه الفرص التي يمنحها تنظيم وسائل الانتاج غواية قهر المقاومات غير العقلانية بوسائل أسرع من المناقشة والتربية . ان الدولة المعقولة تلاقي في الواقع مقاومات من كل نوع . ينجم بعضها من ظاهرة الاستمرار (التي احسن وصفها الماركسيون الصينيون بوجه خاص وقبلهم لينين في **مرض الشيوعية الطفولي**) . ان هذه المقاومات مقاومات نموذجية من الفلاحين والبورجوازية الصغيرة . وسيكولوجية المنفذين لا تسير وفق ايقاع الاختصاصيين ، بل تبقى متلائمة مع مواقف قديمة . وعلى هذا النحو تظهر مقاومات ذات طابع سيكولوجي ليست نابعة من المصلحة بل من التعود على شروط اقتصادية تمّ تجاوزها . لكن المقاومات كلها ليست خاضعة لهذا التفسير بالاستمرار . ان عند الدولة المخطّطة مشروعاً اوسع وابعد من الفرد ، الفرد ذي المصلحة الاكثر دنواً وقرباً والمحدّدة بموته وعلى ابعد حد بموت اولاده . وفي هذه الاثناء تحسب الدولة بالاجيال . ولما لم تكن الدولة والفرد على طول الموجة الزمنية ذاته ، فان الفرد ينمي مصالح ليست متوافقة طبعاً مع مصالح الدولة . اننا نعترف على الاقل مظهرين من مظاهر عدم التوافق هذا بين مطمح الدولة ومطمح المواطن : الاول يتعلق بالتوزيع بين الاستثمار والاستهلاك المباشر ، والثاني يتعلق بتحديد انظمة الانتاج ومعدلاته . ان بين المصالح الصغرى لدى الافراد والقرارات الكبرى لدى السلطة لتوتراً دائماً ،

وهذا التوتر يوجد جدلاً بين المطلب الفردي وقسر الدولة ، جدلاً يعد فرصة لسوء استخدام السلطة .

هناك اذن توترات وتناقضات ليست بديلة للملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، بل ان بعضها مشتق من السلطة الجديدة في الدولة .

وأخيراً ، إن الدولة الاشتراكية دولة أكثر ايديولوجية من الدولة « الحرة » : فبوسعها أن تستورد لحسابها الأحلام القديمة في توحيد ميدان الحقيقة في أرثوذكسية تحتوي على كل مظاهر المعرفة وعلى كل تعبيرات الكلام البشري . وبوسعها ان تسوغ تحويل العقول الى عقول عرفاء تحويلاً كاملاً بحجة الانضباط الثوري والنجوع التكنوقراطي . بوسعها ذلك – أي أنها تشعر بغوايته ولديها وسائله طالما أن في يدها احتكار الارزاق .

هذه الأفكار كلها تتجه إلى النتيجة نفسها : إذا كانت الدولة الاشتراكية لاتمحو إشكالية الدولة بل تجددها – وإذا كانت تسير بعقلانيتها شوطاً بعيداً إلى الأمام وتزيد من فرص انحرافها – فإن مشكلة **مراقبة** الدولة مراقبة ديموقراطية تكون أكثر إلحاحاً أيضاً في النظام الاشتراكي منها في النظام الرأسمالي ، وتقف أسطورة تلاشي الدولة عقبة في وجه معالجة هذه المشكلة معالجة منهجية .

٣ – والمهمة الثالثة لنقد السلطة في النظام الاشتراكي تكون حينئذ في إعادة نقد الدولة الحرة في ضوء هذه الفكرة ، فكرة المراقبة الديموقراطية ، لتمييز أية نظم مؤسسة في هذه الدولة مستقلة عن ظاهرة سيطرة الطبقة مخصصة نوعياً لتجديد سوء استخدام السلطة . ولا يمكن أن يصاغ بالاستناد الى المرحلة الحرجة في الاشتراكية الوجه النقدي الخاص بالاشتراكية . فلا بـد للدولة

الليبرالية أن تبدو ، بصورة حتمية تقريباً ، وكأنها وسيلة مرائية تفسح المجال للاستغلال الاقتصادي . إن التمييز بين أداة السيطرة في يد طبقة وبين المراقبة الديموقراطية بصورة عامة يفرض نفسه اليوم بعد تجربة الستالينية المريرة . ولعل الماركسية تتضمن في صميمها مبدأ هذه المراجعة ، إذ تعلّم أن الطبقة في طورها الصاعد تمارس وظيفة كلية . إن « فلاسفة » القرن الثامن عشر ، إذ ابتكروا مشكلة المراقبات الديموقراطية ، ابتكروا المذهب الحر الحقيقي ، الذي يتجاوز مصير البورجوازية ولا ريب . واذا كانت البورجوازية قد احتاجت إلى هذه المراقبات لتحدّ من السلطة الملكية والإقطاعية ولتسهل صعودها هي فهذا لا يعني انها تستنفد دلالتها الباقية باستخدامها الوقتي . إن السياسة الليبرالية تحوي في قصدها العميق عنصراً من عناصر الكلية لأنهـا كانت متناسبة مع الإشكالية الكلية في الدولة ، بتخطي الشكل البورجوازي للدولة . ولهذا فان استعادة هذه السياسة الحرة ممكن في إطار اشتراكي .

أريد أن أعطي بضعة أمثلة من هذا التمييز مطبّقاً على بنى الدولة الحرة ، من هذا التحكيم في النزاع بين المظاهر « الكلية » والمظاهر « البورجوازية » في هذه البنى . وسأعرضها عرضاً إشكالياً ، لأننا هنا قد بلغنا عملياً نقداً للسلطة الاشتراكية لم تكد خطورته الأولى تستقر :

آ ـ أليس استقلال « القاضي » الشرط الأول الذي لا شرط قبله يُلجأ إليه دوماً من سوء استخدام السلطة ؟

يخيل إلي أن القاضي شخص ينبغي أن يوضع بصورة إرادية ، ويرضى الجميع ، على هامش النزاعات الأساسية في المجتمع .

قد يقال إن استقلال القاضي ضرب من التجريد . ان المجتمع يحتاج ،

على وجه التدقيق ، لأجل تنفسه البشري ، إلى وظيفة « مثالية » ، إلى تجريد مقصود ، متفق عليه ، يستهدف فيه مثالُ الشرعية الذي يجعل واقع السلطة شرعياً . وبدون هذا الاستهداف ، الذي تتمثل فيه الدولة لنفسها بما هي شرعية، يكون الفرد تحت رحمة الدولة وتكون السلطة نفسها دون حماية من تعسفها الذاتي . وإنه لواضح أن المحاكمات في موسكو وبودابست وبراغ وغيرها من الأمكنة كانت ممكنة لأن استقلال القاضي لم يكن مكفولاً تقنياً ولا مبنياً ايديولوجياً على أساس نظرية في القاضي بما هو إنسان خارج الطبقة ، بما هو تجريد ذو وجه إنساني ، بما هو قانون مجسد . لقد كان ستالين ممكناً لأنه كان هناك دوماً قضاة جاهزون ليقضوا وفق مرسومه .

ب ـ أو ليس وصول المواطنين إلى مصادر للإعلام والمعرفة والعلم مستقلة عن مصادر الدولة الشرط الثاني لملجأ دائم من سوء استخدام السلطة ؟ ان الدولة الحديثة ـ كما رأينا ـ تقرر معنى الحياة ، منذ أن توجه اقتصادياً كل اختيارات الإنسان بواسطة القرارات الكبرى الصادرة عن المخططين . وهذه السلطة ستصبح بصورة متزايدة غير قابلة للتمييز من السلطة الديكتاتورية ، اذا لم يكن المواطنون قادرين على أن يكوّنوا لأنفسهم رأياً في طبيعة هذه القرارات الكبرى وفي نتائجها المحتملة .

ان الدولة المخططة تحتاج أكثر من أية دولة أخرى الى رأي مكمل صادر عن رأي عام بالمعنى القوي للكلمة ، أي الى جمهور تكون له آراء ورأي يكون تعبيراً عاماً . فلنرَ ماذا يستدعي هذا : صحافة تكون لقرائها وليس للدولة ، وتكون حريتها في الإعلام والتعبير مضمونة دستورياً واقتصادياً . لقد كان ستالين ممكناً لأنه لم يكن بوسع أي رأي عام أن يبدأ أي نقد يوجه إليه .

بل ان الدولة خلف الستالينية وحدها أيضاً هي التي استطاعت أن تقول انستالين كان شريراً ، وليس الشعب .

ان ممارسة العدالة ممارسة مستقلة وتكوين الرأي تكويناً مستقلاً هما الرئتان في دولة سياسية معافاة . وأما ماعدا هذا فهو الاختناق .

ان هاتين الفكرتين عظيمتي الأهمية حتى ان تصدع الستالينية قد قام عليها . فقد تبلور العصيان على فكرتي **العدالة** و **الحقيقة** . وهذا يفسر نصيب المثقفين في ثورة المجر المخفقة وفي ثورة بولونية الناجحة . واذا كان المثقفون والكتاب والفنانون قد لعبوا دوراً حاسماً في هذه الأحداث ، فمرد ذلك الى أن موضوع المغامرة لم يكن اقتصادياً واجتماعياً رغم البؤس والأجور المنخفضة ، بل كان سياسياً بمعنى الكلمة . لقد كان ، بكلمة أدق ، هو « الضياع » السياسي الجديد الذي يفسد السلطة الاشتراكية . ومشكلة الضياع السياسي ، كما نعلم منذ **غورجياس** ، هي مشكلة اللاحقيقة . ولقد تعلمنا ذلك أيضاً من النقد الماركسي للدولة البورجوازية التي تضع نفسها بصورة كلية على صعيد اللاحقيقة ، صعيد التمييز بين الوجود والظاهر ، صعيد التزييف والكذب . وانه لصحيح جداً هنا أن المثقف ، بما هو كذلك ، منغمس في السياسة . ان المثقف ليجد نفسه مدفوعاً على رأس ثورة وليس ضمن صفوفها وحسب ، بمجرد أن يكون محرك هذه الثورة سياسياً أكثر من كونه اقتصادياً ، وبمجرد أنها تتعلق بعلاقة السلطة بالحقيقة والعدالة .

ج – يحيل إلي بعد ذلك أن ديموقراطية العمل تستدعي نوعاً من الجدل بين الدولة وبين مجالس العمال ، ولقد رأينا أن المصالح البعيدة المدى لدى دولة من الدول ، حتى لو كانت خارجة عن نطاق المال ، لاتتوافق مع مصالح العمال

توافقاً مباشراً ، وهذا واضح في المرحلة الاشتراكية ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، أي في طور عدم مساواة الأجور والاختصاص المهني الذي يعارض بين العمال اليدويين والأطر والمديرين والمثقفين . وهذا واضح أيضاً في مرحلة التصنيع السريع ، أي القسري . ومن ثمة فان تنظيم التوترات بين الدولة والنقابات التي تمثل مصالح العمال المختلفة وحده قادر على ضمان السعي الملتمس الى توازن قابل للبقاء ، أي مثمر اقتصادياً ويمكن تحمله انسانياً . ويبدو لي أن حق الإضراب بوجه خاص هو ملاذ العمال الوحيد ضد الدولة ، حتى ضد دولة العمال . ان مسلمة التطابق المباشر بين ارادة الدولة الاشتراكية مع كل مصالح العمال بأسرهم تبدو لي وهماً مؤذياً وحجة خطرة لسوء استخدام سلطة الدولة .

د — وأخيراً فان المشكلة الاولى هي مشكلة رقابة الدولة من قبل الشعب ، اعتباراً من القاعدة المنظمة ديموقراطياً . وهنا ينبغي لأفكار الشيوعيين اليوغوسلافيين والبولونيين وتجاربهم أن تحتذى وتحلل عن كثب . وتكون المسألة أن نعرف اذا كان تعدد الاحزاب ، وتقنية « الانتخابات الحرة » ، والنظام البرلماني ، تتعلق بهذه « النزعة الكلية » في الدولة الحرة ، أو أنها تخص ، بصورة لا علاج لها ، المرحلة البورجوازية في الدولة الحرة . ولا ينبغي أن تكون عندنا فكرة مكوّنة سلفاً : لا مع ، ولا ضد . لا مع المداومة الغربية ولا مع النقد الجذري (الراديكالي) . ولا ينبغي أن نتعجل أكثر من اللازم في الجواب . من المؤكد أن تقنيات التخطيط تقتضي ألا يسلم الشكل الاشتراكي في الانتاج الى مخاطر استفتاء انتخابي ، وتقتضي أن يكون غير قابل للنقض ، شأنه في ذلك شأن شكل حكومتنا الجمهوري . إن تنفيذ الخطــة يقتضي سلطات مطلقة ، وحكومة تدوم فترة طويلة ، وميزانية طويلة المدى . وتقنياتنا البرلمانية ،

وطريقتنا في جعل الأكثريات تتوالى على السلطة ، تبدو قليلة القابلية للتوافق مع مهات العقلانية الجديدة للدولة . ومن جهة أخرى ، لا يقل يقيناً عن ذلك ، كون المناقشة ضرورة حيوية للدولة . فالمناقشة هي التي تمنحها التوجيه وقوة الدفع . والمناقشة هي التي تستطيع أن تكبح سوء استخدامها للسلطة . إن الديموقراطية هي المناقشة . فينبغي ، اذن ، أن تكون هذه المناقشة منظّمة بطريقة أو بأخرى . وهنـــا تُطرح مسألة الأحزاب أو الحزب الواحد . وما يمكن أن يكون حجة في صالح تعدد الأحزاب ، هو أن هـذا النظام لم يكن فقط انعكاساً للتوترات بين الزمر الاجتماعية المحددة بانقسام المجتمع الى طبقات ، فقد قدّم أيضاً تنظيماً الى المناقشة السياسية في حد ذاتها ، فهو اذن ذو دلالة « كلية » لا « بورجوازية » وحسب . إن تحليـــل مدلول الحزب بالمقياس الاقتصادي الاجتماعي وحده يبدو لي اذن قصير النظر الى حد خطر وصالحاً لتشجيع الطغيان . ولهذا ينبغي الحكم على مدلولي الأحزاب المتعددة والحزب الوحيد لا من حيث دينامية الطبقات وحسب ، بل من حيث تقنيات رقابة الدولة ايضاً . ان نقد السلطة في النظام الاشتراكي هو الوحيد الذي يمكن ان يجعل هذه المسألة تتقدم . وهذا النقد لم يتقدم قط .

لست ادري ما اذا كانت عبارة « الليبرالية » السياسية يمكن انقاذها من الافلاس – ولعل قربها من الليبرالية الاقتصادية هو الذي افسدها نهائياً – رغم أن بطاقة « ليبرالي » تميل ، منذ بعض الوقت ، الى أن تشكل جرماً في نظر الاجتماعيين–الفاشيين في الجزائر وفي باريس وبهذا تعثر على شبابها القديم من جديد .

إذا كان يمكن للكلمة أن تُنقذ ، فاننا عندئذ نقول على أفضل وجه ما يجب أن يقال : ألا وهو أن المشكلة المحورية في السياسة هي الحرية ، سواء أسست الدولة الحرية بعقلانيتها ، أو حدّت الحرية أهواء السلطة بمقاومتها .

العصبة الأندلسية

د. عمر الدقاق

لم تكن الحياة الأدبية بين المغتربين الأوائل في البرازيل تعدو ومضات ضئيلة . فقد كان حظ المهاجرين الرواد من الثقافة يسيراً لا يساعد على القيام بنشاطات ادبية او اجتماعية جادة ، كانوا في معظمهم أميين لا يلوون على شيء آخر سوى الكسب .

على ان القرن الماضي لم يوف على نهايته حتى كانت جموع اخرى من المهاجرين اللاحقين ترفد قوافل السابقين حاملة معها طلائع من المتعلمين الذين راحوا يبدون اهتماماً بشؤون الفكر والادب والاجتماع . وكانت البوادر الأولى

للحياة الادبية والاجتماعية حلقات عفوية اخذت تنعقد في المنازل لقصد السمر ، وقد يتخلل احاديثها ما تحمله الصحف والمجلات العربية القليلة التي كانت ترشح الى المهجر مما جد من اخبار الوطن واحوال الأدب فيه . وفي هذه الاجتماعات نبتت فكرة تأسيس الجمعيات الأدبية والمنتديات الاجتماعية .

رواق المعري :

كانت اولى ومضات المشعل الوهاج الذي غمر نوره المهاجر ان فريقاً من الشبان في سان باولو تنادوا في فجر هذا القرن الى انشاء مؤسسة ادبية اطلقوا عليها اسم (رواق المعري) ، [1] ، وكان ذلك سنة ١٩٠٠ ، ويعود الفضل في انشائها الى نعوم لبكي ، وهو صحفي واديب وشاعر وخطيب استطاع بفضل مزاياه ، ان يجمع حوله عدداً من الشبان المثقفين وعدداً اكبر من اشباه الأميين ، فكانت هذه المؤسسة الثقافية تضم تحت سقفها اعضاءها المتفاوتي المدارك لكي يسمع غير العارفين منهم محاضرات العارفين وما يدور بين هؤلاء من الابحاث والمحاورات في مواضيع ثقافية واجتماعية وسياسية ، [2] . وكان قوام هـذه الحلقة الادبية ، خليل كنيب ، يوسف ناصيف الضاهر ، فارس نجم ، انيس يواكيم الراسي ، وديع فرح معلوف ، اسطفان غلبوني ، قيصر معلوف ،

---

(١) شفيق معلوف : مقالته في آخر عدد من مجلة العصبة ، كانون الاول ١٩٥٣ سان باولو .

(٢) توفيق ضعون : ذكرى الهجرة ١٨٦ ، ونعوم لبكي هو والد الشاعر اللبناني صلاح لبكي ، ويعد من اول المهاجرين ١٨٩٧ ، وجريدته «الرقيب» تعد رائدة.

جورج عساف ، اسعد بشارة . وانضم اليها عدد كبير من الباعة المتجولين المتعطشين لسماع الأحاديث والأبحاث بلغتهم العربية »[1].

لقد بلغ الشعر العربي آنئذ في وادي النيل منزلة رفيعة من الازدهار . « وفي طليعة الشعراء الذين كان نتاجهم مدار البحث في تلك الجلسات احمد شوقي وحافظ ابراهيم وخليل مطران . . وكان هؤلاء الشعراء في مطلع الشباب[2] » . واستمر رواق المعري على هذه الحال من النشاط الادبي الى ان قامت الحرب العالمية الاولى حين عصفت المنازع القومية في النفوس « واصطبغ الشعر بصبغة الثورة الحمراء فلم تعد مناقشات الرواق تنقع غليل الأدباء الذين تكاثروا عدداً »[3].

واذا حاولنا رصد حصيلة ما انتجته تلك الحلقة الادبية لم نقع الا على اليسير ، فجماعة ادبية تقوم على هذه الصورة من تباين اعضائها وفي تلك الفترة المبكرة من حياة الجالية العربية لا ينتظر منها الكثير . ولعل اهم ثمار الرواق قيام فريق من رجاله بتأسيس صحف عربية في عدد من مدن البرازيل الكبرى ، وفي ظله ايضاً صدر ديوان « تذكار المهاجر » لقيصر المعلوف احد اعضائه ، وهو اول ديوان من الشعر العربي في العالم الجديد .

على ان الأثر الذي تركه الرواق في الحياة الادبية بين مغتربي البرازيل كان في نقل روح الادب الى المهجر والتمهيد لحركة أدبية وصحافية شاملة . ولعل اهميته الاولى ترجع في رأينا الى انه — من حيث لا يدري — اختط الطريق ووضع البذرة ، وحدد بذلك سمات الادب العربي في البرازيل الذي سيزدهر بعد

(١) جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية ط ٢ ، ص ١٥١

(٢) الياس قنصل : أدب المغتربين ٢٨ . وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٣

(٣) جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية ٣١٦ .

حين . لقد انطلق اعضاء الرواق من مثل ادبي اعلى آثروه في مغتربهم وتجلى في التسمية التي اختاروها لجماعتهم ، وهو اجلال النتاج الشعري الذي كان يرشح اليهم من الوطن واحلال اعلامه منزلة رفيعة في نفوسهم ... فقد استتبع هذا الشعور ترديد قصائد المقيمين ثم نقدها نقـــداً تأثرياً عابراً خلال تلك الجلسات والأسمار ، حتى ادى ذلك – كما تروي لنا الشذور القليلة من اخبارها – الى معارضة بعضهم لتلك القصائد ومحاولتهم النسج على منوالها . وهذا يعني امراً ذا بال في الحياة الادبية في البرازيل ، اذ جعل الخطوات الادبية الاولى مشدودة الى الشعر العربي التقليدي الذي كان يمثله آنئذ في المشرق أعلام بارزون . وحين استأنفت الحياة الادبية سيرها بعد انفراط عقد الرواق كانت الصورة التي ينبغي ان يكون عليها الأدب ماثلة في النفوس ... ولم يكن تأسيس العصبة الأندلسية بعد عدد من السنين الا من وحي تلك الخطوة الرائدة . وكانت هذه الروح بطبيعتها وسماتها مغايرة لما كانت عليه في المهجر الشمالي حيث كان جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة، ركنا الرابطة القلمية فيما بعد ، ينظران شزراً الى الادب الأدب العربي كله ويرشقان أعلامه المحدثين بسهام النقد الحادة .

وعندما انفرط عقد حلقة الرواق غدت في ذمة التاريخ اقدم حلقة ادبية عرفتها المهاجر . ثم عاد النشاط الادبي بسان باولو سيرته الاولى في حلقات متفرقة تلتئم من حين الى آخر في بعض منازل هواة الشعر ومحبي الأدب ، وكان لكل حلقة من هذه الحلقات رواد وأصفياء . كمنزل شفيق معلوف وتوفيق قربان والياس عاصي وتوفيق ضعون وماريانا فاخوري ومكتب مجلة الشرق ... فمن هذه المجالس ما يجتمع ذووه حول « اسخى الموائد واشهى القصائد » ويكون « ملتقى طلاب المعارف والنكات » ، او يسمرون « حيث تفعم رائحة القهوة

المعطرة[1] او تصدح الأصوات العذبة على انغام العود الشجية وصيحات الإعجاب بالمجانا والعتابا ...

من الرواق الى العصبة :

يجنح بعض كتاب « العصبة الاندلسية » - لأسباب لاشعورية - الى تصوير فترة ما قبل تأسيس هذه الجمعية الادبية بريشة قاتمة . ففي رأي حبيب مسعود[2] رئيس تحرير مجلة (العصبة) انه « في اوائل العقد الثالث من هذا القرن اصاب الادب العربي في المهجر عامة وفي (البرازيل) خاصة، جمود وانحطاط كادا يشدانه . فقد اعترته الميوعة وتفشي فيه الخنوع والرياء واصبح مورداً للارتزاق والاستجداء .. واوشكت هذه العوامل الهدامة ان تطمس تلك المعالم التي اقامها الخلص من رجال القلم لولا نهضة فئة من العشيرة الادبية ، وقد راعها مدى الخطر وآلمها انين الأدب المحتضر ، فجمعت شملها والفت كتيبتها، ومضت الى غايتها» .

ويبدو أن حال التيار الذي استبد بكثير من الصحف العربية كان من دوافع هذا القول ، ولكن النتاج الأدبي في البرازيل لم يكن مقتصراً على الصحافة وحدها ، كما ان عدداً من الآثار الادبية البارزة صدر قبل تأسيس « العصبة الاندلسية » كديوان « الرشيديات » وديوان « القرويات » للشاعر القروي و « ديوان فرحات » و « رباعيات فرحات » لالياس فرحات ، و « على بساط الريح » لفوزي معلوف .. وغير ذلك من نتاج الشعر والنثر .

ففي ذلك القطر بصورة عامة ، وفي مدينة سان باولو بوجه خاص لم يجتمع لمهجر آخر من الكتاب والشعراء مااجتمع لهذا المهجر البرازيلي ؛ « فقد

---

(١) المصدر السابق ١٥٧

(٢) كتاب « في هيكل الذكرى » ١٣ . سان باولو ١٩٤٤

كانت خطوات أعلامه في ميادين الابداع تشير الى ان زعامته انتقلت أو هي على وشك الانتقال من الشمال الى الجنوب »(١) . ولكن هؤلاء الادباء على كثرتهم لم يتضامّوا في جماعة أدبية او جماعات ، بل كان كل منهم يمارس نشاطه الادبي مستقلا عن سائر اخوانه او مجتمعاً معهم في المناسبات القومية او الاجتماعية . وانه لمن الغريب ان ينقضي أمد طويل على انحلال رواق المعري قبل ان تولد « العصبة الاندلسية » . فقد مضى على تأسيس تلك الجمعية الرائدة اكثر من ثلاثين عاما لم تقم خلالها محاولة جدية أخرى لم شعث الأدباء العرب في مدينة سان باولو أو في سائر البرازيل . ان كل الاسباب لهذه الخطوة كانت متوافرة وجميع الظروف كانت مواتية .

فتجربة الرواق الأولى تبدو مشجعة بالرغم من كل المثبطات التي كانت ترافق تأسيسها في ختام القرن التاسع عشر ذلك الموعد المبكر ، كما ان عدد الادباء النابهين كان قد ازداد هناك كثيراً في اعقاب الحرب العالمية الاولى عما كان عليه في أوائل القرن العشرين ، وثمة أخيراً تجربة باهرة كانت جديرة بأن تحفز الهمم على تأسيس مثل هذه الجماعة ؛ تلك هي قيام « الرابطة القلمية » في المهجر الشمالي التي قامت في نيويورك عام ١٩٢٠ . ومع ذلك كله تأخر انشاء « العصبة الاندلسية » حتى مطلع عام ١٩٣٣ .

والواقع ان الصحافة الادبية والمنتديات الاجتماعية في سان باولو وريودي جانيرو هي التي كانت تستقطب النشاط الادبي وتسد شيئاً من ذلك الفراغ طوال تلك الفترة فمجلة « الشرق » و « الاندلس الجديدة » و « الجالية » . . . وسواها كانت مراداً لأقلام الكتاب والشعراء ، كذلك كان شأن النادي الحمصي

(١) الياس قنصل : أدب المغتربين — ص ٣٨ . وزارة الثقافة — دمشق ١٩٥٣

والنادي الفينيقي والمنتدى الزحلي .. وسواها من الاندية والجمعيات . فمن فوق تلك المنابر ، وفي رحاب تلك الأبهاء كانت حفلات التكريم والمهرجانات القومية والاجتماعية تكاد لا تفتر ؛ من نحو الاحتفال بذكرى ميسلون واندلاع الثورة السورية وتأبين الشريف حسين وذكرى المولد النبوي .. أو من نحو الاحتفال بذكرى فرح انطون وسليمان البستاني وجبر ضومط ومصطفى لطفي المنفلوطي وفوزي المعلوف وجبران خليل جبران وسواهم من أعلام الفكر والأدب . فقد كان حفل في تلك المحافل يوماً مشهوداً في حياة الجالية يتبارى فيه الشعراء والخطباء وكأنهم في عكاظ جديدة ، وكان طبيعياً كذلك ان يقف في الطليعة العديد ممن غدوا بعد حين نواة « العصبة الاندلسية » . حتى ان لفيفاً من هؤلاء حظوا بحفلات تكريم مماثلة قبل انتظامهم في تلك المؤسسة الأدبية ، وكان احتفاء الجالية العربية بهم وتلاقيهم فيما بينهم على صعيد واحد ايذاناً بانبثاق عهد أدبي جديد، فقد اقيم للشاعر القروي احتفال تكلم فيه عدد ممن غدوا بعد حين رفاقاً له في العصبة الاندلسية ، كما أقيم احتفال آخر لعقل الجر ثم ثالث لشكر الله الجر كانت الحفاوة بها على هذه الشاكلة ، فتكلم في المهرجان الاخير اسكندر كرباج وحبيب مسعود ونصر سمعان والشاعر المدني والشاعر القروي .. وكلهم اصبحوا اركان « العصبة الاندلسية » . واكثر من ذلك كان لفظ (العصبة) يتردد احياناً في تلك المحافل قبل ان تنبت فكرة تأسيس تلك الجمعية في الرؤوس ، فقد ردّ شكر الله الجر على المحتفين به مخاطباً اياهم بقوله :(١)

عصبة للبيان في الشعر والنثر   اعادت اليه غض شبابه

وكان هذا اللفظ مألوفاً قبل تأسيس تلك الجماعة الادبية بعدد من السنين .

---

(١) ديوان الروافد ، ريو دو جانيرو ١٩٣٤

فقد جاء في مقالة لجورج انطوان الكفوري في صدد كلامه عن الادباء العرب في البرازيل قوله :[1] « وكان معظم أفراد هذه العصبة هاجعاً حتى جاءهم صاحب الشرق .. » . وفي مقالة أخرى لاسكندر كرباج جاء:[2]« في البرازيل عصبة ادبية لها شأنها الاكبر في هذه الحركة بما نفحت وتنفح الآداب العربيـــة من منظوم ومنثور » . اما الصفة (الاندلسية) –الشطر الآخر لتسمية تلك الجماعة الادبية– فقد كانت مائلة دنيا المغتربين في المهجر البرازيلي ، حيث كان وجودهم نفسه في تلك الربوع الغربية كافياً لأن يذكرهم بالوجود العربي في أرض الاندلس ،حتى ان الكثيرين منهم كانوا يرون في انفسهم حفدة لأولئك الأماجد ويطمحون الى بعث جانب من ذلك التراث الأدبي في عالمهم الجديد .

كل ذلك كان إرهاصاً بانبثاق العصبة الاندلسية وبتسميتها . وغدا جلياً في الاذهان أنه بات من مستلزمات الحياة الأدبية في ذلك المهجر ان تتلاحم تلك القوى المبعثرة في جمـــاعة ، وتنتظم في سلك ، وتنضوي تحت لواء .

تأسيس العصبة الأندلسية :

لم تكد شمس « الرابطة القلمية » في نيويورك تؤذن بالمغيب حتى طلعت بعد حين شمس جديدة في سان باولو بميلاد « العصبة الاندلسية » ، فغمرت الحياة الأدبية في المهجر الجنوبي بروح ناشطة ، وانتقلت بذلك راية الأدب العربي من الشمال الاميركي الى جنوبه ، وكان أدب الرابطة القلمية مايزال مـلء السمع والبصر في اقطار المهجر وفي ربوع الوطن على السواء .

---

(١) مجلة « الشرق » ، كانون الثاني (يناير) ١٩٣١ ، ص ٨٣ – سان باولو

(٢) مجلة « الشرق » ، نيسان (ابريل) ١٩٣١ ص ٤ –سان باولو

يقول شكر الله الجر[1] : « وكان لانقسام الجاليتين السورية واللبنانية عام ١٩٣٢ في سان باولو حافزاً لي على التفكير في انشاء جامعة ادبية تضم أقلام كبار ادبائنا فلايتورطون فيما تورطت فيه صحف عربية اخبارية استثمرت الشقاق وغذت عوامل الشر في تلك الحاضرة غير ملتفتة الى سنوات من الجهاد المشترك . . ولما كان العدد الاكبر من ادباء الضاد اتخذ تلك المدينة الصناعية العظمى مركزاً لأعماله ، ومن صحفها مسرحاً لبنات افكاره ، اعتزمت السفر اليها وفي رأسي فكرة انشاء تلك الجماعة »

ثم يذكر نظير زيتون امين سر العصبة الاندلسية [2] : « ان شكر الله مكث شهرين في سان باولو يذلل العقبات ويفاوض ويعالج الأمور بعزيمة وهمة وحزم حتى اسفرت مساعيه عن بوارق الامل بالنجاح » . وقد لقيت الفكرة في مدينة سان باولو ، واحة الأدب المهجري ، ارتياحاً واستحساناً ، اذ كانت أواصر الألفة والود وثيقة بين قلوب الكثيرين من الأدباء . على ان الفضل في اخراج الفكرة الى الفعل يعود الى ميشال معلوف وهو شاعر مقلّ ويمتاز بخلق رضي ومنزلة رفيعة في قلوب المغتربين ، وكان الى ذلك ثرياً يبذل المال في كل قصد شريف ، وقد تبنى فكرة تأسيس تلك الجماعة الادبية وايدها بكل ما أوتي من جهد ومال .

وفي مساء الخامس من شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ تم عقد الاجتماع التأسيسي في مقصورة ميشال معلوف . وقد قصر المؤسسون هذه الجلسة على تسمية الجمعية ، وعلى انتخاب رئيس لها ونائب رئيس . فاختاروا لها اسم « العصبة الاندلسية »

(١) مجلة « العصبة » كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٣ ص ٤٩٧

(٢) مجلة « الورود » آذار (مارس) ١٩٦٤ ص ٩ – بيروت

تيمناً بالعصر العربي الاندلسي . وانتخبوا باجماع الرأي ميشال معلوف رئيساً ، وداود شكور نائباً للرئيس[1] . وهكذا ولدت في تلك الليلة التاريخية العصبة الاندلسية المباركة . [2]

وقد تعذر في هذه الجلسة التأسيسية اجتماع معظم الادباء ممن كان مقترحاً حضورهم ، فاقتصر على من تمكن منهم من تلبية الدعوة يومذاك وهم ميشال معلوف، نظير زيتون ، حبيب مسعود ، اسكندر كرباج ، نصر سمعان ، داود شكور، يوسف البعيني ، حسني غراب ، يوسف اسعد غانم ، انطون سليم سعد ، شكر الله الجر [3] . وقد اقترح الحاضرون ان يضاف الى هذه الاسماء اسماء اربعة ممن تعذر حضورهم الجلسة التأسيسية وان يجعلوا في عداد المؤسسين وهم الشاعر القروي رشيد سليم الخوري ، عقل الجر ، شفيق معلوف ، جورج حسون معلوف .

ونظراً لما كان عليه الكثير من الصحف عهدئذ من خصام وتهاتر ، كان الاتجاه السائد قبل تأسيس العصبة الاندلسية استبعاد الصحفيين عن تلك الجماعة الادبية برغم وجود لفيف من الأدباء بينهم ، حرصاً على سلامة المؤسسة الوليدة وأملاً في استمرارها وازدهارها لتؤدي رسالتها على خير وجه . وعلى ذلك ارتضى شكر الله الجر في تلك الجلسة الاولى انه يحذف اسمه من سجل الاعضاء المؤسسين انسجاماً مع الرغبة السائدة برغم كونه في طليعة الذين اقاموا ذلك الصرح الادبي، فهو يصدر مجلة « الاندلس الجديدة » وفي نشر اسمه بين الاعضاء خروج على ذلك

---

(١) مجلة « العصبة » كانون الاول ١٩٥٣ ، من كلام شكر الله الجر (ص) ٤٩٨

(٢) توهم عدد من المؤلفين فذكروا خطأ ان تأسيس « العصبة الاندلسية » كان عام ١٩٣٥ ومنهم اكرم زعيتر في كتابه « مهمة في قارة » ص٢٩ ، ومحمد عبدالغني حسن في كتابه « الشعر العربي في المهجر » ص ٥٠ .

(٣) العصبة ، ك١ (ديسمبر) ١٩٥٣ ص ٤٩٨

الالتزام وخرق لأحد الأسس التي قامت عليها «العصبة الاندلسية» ، مما قد يجر عليها حملات تؤثر في دوام بقائها وتعوقها على اداء رسالتها . ويبدو ان هذه اللفتة اثارت تقدير الادباء المجتمعين ، فارتأوا ان تكون مجلة «الأندلس الجديدة» لسان حالهم وان يؤثروا مجلته التي تصدر في ريودو جانيرو بهذا الفضل ترضية منهم له ، وتقديراً لجهده ، مع ان سان باولو هي مقر «العصبة الاندلسية» ومجتمع اكثر اعضائها كما كانت حافلة بالصحف والمجلات ، ولم يكن من العسير ان تغدو واحدة منها لسان العصبة الاندلسية الى حين. ومما يؤيد ذلك ان الاعضاء المجتمعين شعروا بانه ليس من الطبيعي ان يكون مقر المؤسسة وكيانها في بلد ، وان يكون لسانها ووجهها في بلد آخر . ومع ذلك استمرت «الاندلس الجديدة» في العاصمة تنشر على قرائها نفثات اقلام عدد من رجال «العصبة الاندلسية» ، عاماً وبعض العام ، حتى قيض لهذه المؤسسة اصدار مجلة خاصة بها في سان باولو دعتها «العصبة» ، وذلك بعد نحو عامين من تأسيس «العصبة الاندلسية» ، ووكل امر تحريرها الى العضو حبيب مسعود، فصدر العدد الاول مع غرة عام ١٩٣٥

والمتتبع لما كان ينشره اعضاء «العصبة الاندلسية» من نتاج ادبي خلال الفترة التي سبقت انشاء المجلة الرسمية للمؤسسة يلاحظ انهم لم يلتزموا بالتوصية التي كان اصدرها المؤسسون الذين حضروا الجلسة الافتتاحية في ان تكون مجلة «الاندلس الجديدة» لسان حال «العصبة الاندلسية» فكان بعضهم ينشر مقالاته او قصائده في صحف سان باولو ومجلاتها دون ان يحصر ما ينشره في «الاندلس الجديدة» .

وهذا الامر يتفق مع ما اورده توفيق ضعون في افتتاحية مجلة «الدليل» على اثر انبثاق العصبة الاندلسية ، اذ قال[1] : «واعضاء العصبة غير مقيدين بواجب

(١) مجلة «الدليل» العدد الثالث من السنة الخامسة ، ١٠ شباط (فبراير) ١٩٣٣

نشر متنجاتهم في صحيفة دون اخرى ، على انهم متخـــذون على انفسهم عهدا بأن يثبت كل منهم تحت توقيعه نسبته الى العصبة الاندلسية ، وهذا الكلام يعني انه لم يكن هنالك من سبب وجيه يقتضي من اعضاء العصبة الاندلسية كافة ان يقصروا نتاجهم على مجلة واحدة لايمت صاحبها من الناحية الرسمية بصلة الى العصبة الاندلسية . ومما يؤكد عنصر الاختيار في هـــذا الموضوع ان اعضاء « العصبة الاندلسية » انفسهم بقوا على هذه الحال حتى بعد صدور مجلتهم « العصبة » فلم يكونوا ملزمين بان يخصوها دون سواها بنتاجهم على الرغم من كونها مجلة عصبتهم ولسان حالها .

وقد حققت « العصبة الاندلسية » امرين بارزين ساعداها على البقاء بفضل رئيسها ميشال معلوف ، اذ اتخذت لها مقراً استأجره في موقع رئيسي في مدينة سان باولو يقع « في الدور الثاني عشر من بناية (مارتينللي) الفخمة . وهو يتألف من قاعة رحبة وغرفتين جهزهما الرئيس بكل ما يرضي الحس والذوق من الاثاث الفاخر » (١) ، ثم تبرع ميشال معلوف بنفقات تأسيس مجلة « العصبة » من حروف طباعة وورق ومكتب وسوى ذلك من المتطلبات . وتعهد بعـــد ذلك حبيب مسعود بأصدار المجلة وفقاً للشروط التي وضعتها الهيئة الادارية للعصبة الاندلسية ، وذلك بان يتولى بدوره الانفاق على المجلة وجمع الاشتراكات والاعلانات لحسابه الخاص (٢) .

وهذا يعني انه ترك لرئيس التحرير الأمور المالية دون ان تلتزم المؤسسة تجاهها بما ينجم عن استمرار صدورها من ربح او خسارة .

---

(١) توفيق ضعون : ذكرى الهجرة ١٩٤ . سان باولو ١٩٤٥ – ١٩٤٦ .
(٢) هذه المعلومات مستقاة من حديث شخصي مع الاستاذ نظير زيتون امين سر العصبة الاندلسية بتاريخ ٦ أيار (مايو) ١٩٦٥ .

وبصدور مجلة « العصبة » في مطلع عام ١٩٣٥ تدخل « العصبة الاندلسية » مرحلة جديدة من النشاط الادبي وتغدو لها منزلة رفيعة في مضمار الحياة الادبية، ليس في البرازيل فحسب، بل في ارجاء الوطن العربي. وهكذا اثمرت الغرسة، وتهافت الادباء على الانتساب الى العصبة الاندلسية، فتكامل عقدها بأعلام جدد، في طليعتهم شفيق معلوف والشاعر القروي والياس فرحات وسلمى صايغ (١) ورياض معلوف. (٢)

ثم اتسعت الهيئة الادارية فأصبحت تتكون من رئيس ونائب رئيس، وكاتب وخطيب بالبرتغالية، وخازن، ومدير للمكتبة. وكان انتخاب هؤلاء يجري كل عام، وقد انتخب ميشال معلوف رئيساً طوال أربع سنوات متواليات منذ تأسيس العصبة الاندلسية. وفي عام ١٩٣٧ تم انتخاب الشاعر القروي رئيساً

---

(١) اخرج جورج صيدح في كتابه « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » سلمى صايغ من عضوية العصبة الاندلسية بحجة ان اقامتها في المهجر لم تطل، في حين انها كانت عضواً عاملاً اذ اسهمت بمقالات عديدة في مجلة العصبة، وورد اسمها في عداد الاعضاء كما كانت تذيل مقالاتها باسمها مقروناً بعبارة: « العصبة الاندلسية ». وإلا كان علينا ان نخرج ايضاً الشاعر رياض معلوف الذي قصد الى البرازيل زائراً فأكرهه نشوب الحرب العالمية الثانية على البقاء حتى تنجلي الغمة.

(٢) ذكر انور الجندي خطأ في كتابه « الشعر العربي المعاصر » ص ٥٦٣ ان فوزي المعلوف ورياض المعلوف من مؤسسي العصبة الاندلسية، مع ان فوزي توفي قبل تأسيس العصبة الاندلسية. كما ان رياض معلوف لم ينتسب اليها الا بعد سفره الى البرازيل سائحاً قبيل الحرب العالمية الثانية اي بعد اكثر من خمس سنوات من تأسيسها. كذلك جعل يعقوب العودات في كتابه « الناطقون بالضاد في اميركا الجنوبية » الشاعر ميشال مغربي في عداد اعضاء العصبة الاندلسية وهو ليس منهم. وفعل ذلك ايضاً وديع ديب في كتابه « الشعر العربي في المهجر الأمريكي ».

جديداً للعصبة الاندلسية (١) . وفي العام الذي تلاه أي عام ١٩٣٨ تألفت عمدة جديدة عاد فيها ميشال معلوف الى منصب الرئاسة وبقي يشغله الى أن توفي في لبنان عام ١٩٤٢ . وكانت « العصبة الاندلسية » ومجلتها متوقفتين عن النشاط بسبب قوانين الحرب التي شرعها حاكم البرازيل « فارغاس » بصدد المؤسسات والصحف غير البرازيلية .

ولكن شمل اخوان العصبة كان يلتئم من حين الى آخر في دارة شفيق معلوف الى أن وضعت الحرب اوزارها ، فعادت العصبة الاندلسية الى سابق عهدها واستأنفت نشاطها بعد أن اختارت رئيساً لها شفيق معلوف الذي بقي في منصبه هذا حتى انحلالها بانفراط عقدها واحتجاب مجلتها مع غروب عام ١٩٥٣ . ولعل الفضل في مد اجل العصبة الاندلسية ومجلتها « العصبة » يعود الى رئيسها الاخير والى مؤازرة حبيب مسعود له . فقد ترسم شفيق خطا مؤسسها ميشال معلوف وبذل في سبيلها من ماله وجهده ووقته ما وقاها العثرات وصانها عن الابتذال .

على ان « العصبة الاندلسية » لم تضم - بطبيعة الحال - جميع الأدباء المغتربين في ذلك المهجر . فقد كان عددهم اوفى من أن يجتمع في مؤسسة واحدة فبقي خارجها ميشال مغربي وتوفيق برير وفارس الدبغي وسعيد اليازجي وسليم

---

(١) انظر مجلة « العصبة » ايار (مايو) ١٩٣٧ ص ٣٦٤ ، ولم يشر اي مصدر آخر من المصادر الى هذه النقطة ، فهي جميعاً تورد أن رئاسة ميشال معلوف استمرت منذ تأسيس العصبة الاندلسية حتى وفاته ، دون ان تشير الى رئاسة القروي خلال ذلك. ونحن نرجح ان الشاعر القروي قد اختير من رفاقه للرئاسة دون رغبة منه فأبى ممارسة مهامه ، وبذلك عاد ميشال معلوف رئيساً للعصبة الاندلسية .

نادر ونجيب سوايا ووديع الشرقوني وجورجي قصاص ومحمود شريف ومدحة غراب .. وكثيرون سواهم . ومع ذلك فقد ضمت تلك المؤسسة ابرز من نبغوا في مضمار الشعر والنثر في ذلك المهجر البرازيلي . لقد كان باب الانتساب اليهـا مفتوحاً ، بل انه لم يقتصر على القاطنين في سان باولو ، فكان ثمة اعضاء من ريودوجانيرو مثل عقل الجر وشكر الله الجر ونعمة فازان وآخرون من ولايات نائية ؛ كان الياس فرحات حين انتسـابه مقيماً في (بارانا) ويوسف اسعد غانم في (غوياز) وجرجس الخوري كرم في (ميناس) وجبران سعادة في (باهيا) .. فالعصبة كانت ترمي الى جمع الادباء – أياً كان مقرهم – في سلك واحد تعزيزاً لشأن الأدب العربي في البرازيل ، وهؤلاء كانت صلتهم بالعصبة الأندلسية ادبية لا ادارية (١) . ولكن هذه الغاية التي رمت اليها تلك المؤسسة أدت الى ازدياد عدد الاعضاء وكثرتهم ، ونجم عن ذلك تباين في امزجتهم ومستويات ثقافتهم ، فضلاً عن اختلاف مشاربهم ومفاهيمهم الفنية وعقائدهم السياسية .

أهداف العصبة الاندلسية :

يعد تأسيس العصبة الاندلسية ابرز حدث ادبي في حياة الادب العربي بالبرازيل وفي سائر اميركا الجنوبية . فقد انبثقت تلك المؤسسة من صميم الحياة الحامية التي كانت تنحرف في كثير من الاحيان عن اهدافها السامية وتنجرف مع نزوات اصحابها واهوائهم . اما الصحافة العربية التي كانت تحتضن الادب وتذيعه في دنيا المغتربين فقد اساءت من جهة اخرى الى الحركة الادبية بما انغمست فيه من خصام وتهاتر كان له أسوأ الاثر في تشويه الادب ونقده . وهكذا ، ومن تلك الفوضى المستفحلة في الاقلام انبثقت مؤسسة العصبة الاندلسية .

(١) من رسالة بعث بها الي نظير زيتون بتاريخ ١٩٦٥/٥/٦ .

ومن خلال الدستور الذي وضعته هذه الجمعية، ومن افتتاحيات مجلتها «العصبة» ومن اقوال اعضائها البارزين يمكننا تحديد الغاية التي انشئت من أجلها والأسس التي قامت عليها والأهداف التي وضعتها نصب عينيها :

أ – «رفع شأن الادب العربي في البرازيل» : كان هذا هو المطلب العريض الذي رمت اليه العصبة الاندلسية منذ اللحظة الاولى، بل انه كان الحافز الأكبر على تأسيسها، وفي ذلك يقول شفيق معلوف[1] : «.. كان اظهر غايات العصبة الاندلسية .. واوجه اهدافها تعزيز الادب العربي في المهجر»، وهذا الهدف العام يكاد يكون قسمة بين الجماعات الادبية التي ظهرت في الوطن وفي المهاجر على السواء. فحين تنادى اعضاء «الرابطة القلمية» في نيويورك كان غرضهم ايضاً «بث روح جديدة نشيطة في جسم الأدب العربي، وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد»[2]. كذلك جاء في مقدمة اغراض «جماعة ابولو» في مصر «السمو بالشعر العربي .. وترقية مستوى الشعراء ..»[3]. ولم يكن تأسيس العصبة الاندلسية الا ثورة على الواقع الأدبي الفاسد، فقد غدا الادب في رأي حبيب مسعود «تلهية وأداة للتمجيد، وسلعة للتعليق والتزويق وباعثاً من بواعث الارتزاق، في حين كان الادب في الماضي «أرفع شأناً وابعد مطلباً من ان يعرض جزافاً، وكان الأديب يحسب ذلك القبس الهادي والمرشد الامين والمعلم الثقيف»[4].

ولا يسع الباحث إلا أن يعرب عن اعجابه بالمدى الذي بلغته تلك

(١) مجلة «العصبة» كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٣ ص ٤٨٤ .
(٢) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران ١٧١ .
(٣) مجلة «ابولو» العدد الاول : ايلول (سبتمبر) ١٩٢٣ ص ٤٦
(٤) مجلة «العصبة» العدد الاول: كانون الثاني ١٩٣٥ ص ٦

المؤسسة الادبية في تحقيق هدفها هذا ، فالمجلدات الثلاثة عشر من مجلتها وما انتجه كتابها وشعراؤها طوال فترة حياتها .. كل ذلك يشهد بأنها استطاعت رفع شأن الادب المهجري في البرازيل مكانة عالية ، واكثر من ذلك استطاعت أن تغني الادب العربي الحديث غناء كبيراً .

ب ـ حرية الاديب : كان هذا المبدأ هو الأصل الذي انطلق منه مفهوم العصبة الاندلسية للأدب . ولهذا وسعت هذه المؤسسة الكثيرين بفتحها امامهم ابواب الدخول في عضويتها ، وفتحت صدرها لنتاجهم المتنوع الطعوم والالوان دون ان تتدخل في حرية الاديب وتوجيه ادبه شريطة ألا يخل بدستور العصبة بالتعرض لشؤون السياسة والدين . واغلب الظن ان هذا المفهوم لحرية الادب كان يسود اوساط الادباء العرب عامة في تلك الفترة ويحظى بتأييد الشعراء والنقاد بوجه خاص ، وقد سرى اليهم ـ كما يبدو ـ من ادباء القرن التاسع عشر في اروبة الذين اخذوا في ادبهم بمفهوم الفن للفن ، أما لم يكن مفهوم الفن للحياة قد بلغ من القوة قدراً كبيراً في الفكر الغربي او الشرقي على السواء .

ويوحي من هذا المفهوم الادبي جاء في افتتاحية العدد الاول من مجلة العصبة [1] : « ان الغاية التي انشئت لأجلها العصبة الاندلسية هي خدمة الأدب لأجل الأدب ، وتحريره من اللجم والقيود التي تحد من حريته وتكبح انطلاقه » . ثم يقول المحرر بصدد رفاقه في العصبة الاندلسية : « .. وقد يختلفون بعضهم عن بعض رأياً ومذهباً ، ولكنهم جميعا متضامنون متآخون تحت لوائها الذي لا يعرف لوناً سوى لون الأدب ، ولا سمة إلا سمة الثقافة .. لكل عامل فيهـا حريته الفكرية ونظراته الخاصة في أي الشؤون .. » . ولا شك ان حرية الأديب

(١) العدد الاول ، كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥ .

المنشودة لم تكن آنذاك الا جانبا من الحرية السياسية والاجتماعية التي كان الفرد العربي يتطلع اليها بلهفة ، وهي من ناحية اخرى تنطوي على رفض للمفهوم الادبي الموروث الذي سلب الشاعر العربي حريته امدا طويلا وجعل قريحته حبيسة البلاط .

جـ ـ « مانهدمه السياسة يبنيه الأدب » : هي العبارة التي وردت في دستور العصبة الاندلسية واتخذتها الجماعة شعاراً لها فيما ينتجه اعضاؤها وما تنشره مجلتها . وقد اولى مؤسسو العصبة الاندلسية ثم مجلتها هذا المبدأ اهتمامهم الأول بسبب ماكان يسود الجو الادبي بين المغتربين من تشتت الاهواء السياسية وتشعب النازع الاجتماعية وما هذا المبدأ في الواقع الا احتراز من مفهوم الحرية السابق وتقييد لاطلاقها ، وهو بمثابة تفسير لحدودها وتنظيم لممارستها .

وقد جاء في افتتاحية العدد الاول من مجلة « العصبة » انها ترمي الى ادب لايبلل حواشيه رشاش العقائد السياسية والمذاهب الدينية والمجاملات الاجتماعية ، وتقف حاجزا بين صحيحه وفاسده ، لقد عانى كل مغترب غيور من طغيان المآرب السياسية وما كانت تجره على الجالية العربية من أذى ، حتى بات مقتنعاً بانه مادخلت السياسة امرا الا افسدته . وانسجاما مع هذا المبدأ حالت العصبة الاندلسية دون قبول رجال الصحافة في عداد اصحابها ولو كانوا في عداد الادباء ، وبقيت أمينة لمبدئها فشطبت اسم الشاعر شكر الله الجر من عضويتها الى ان هجر الصحافة ، ولم تمنح عضويتها توفيق ضعون إلا بعد احتجاب مجلته ، حتى إنها ضحت ببعض اعضائها حفاظا على هذا المبدأ وفي مقدمتهم الشاعر الياس فرحات والباحث توفيق قربان .

ومع ان النص على ضرورة صون الأدب من شوائب السياسة كان حاجة ملحة اقتضتها الحياة الادبية الحامية في البرازيل والتجارب الاجتماعية المريرة، فان ذلك لم يكن بدعا من جمعية ادبية كالعصبة الاندلسية، فقد عملت «الرابطة القلمية» في نيويورك من قبل بهذه الروح ولم تؤمن بجدوى تأثر الادب بالأحوال السياسية. كما جعلت جماعة «ابولو» في مصر غرضها الاول «السمو بالشعر العربي وتوجيه جهود الشعراء توجيها شريفا» [1]. وعندما صدر الاول من مجلة «الرسالة» في مصر جاء في افتتاحيتها بقلم احمد حسن الزيات [2]: «ان غاية الرسالة هي ان تقوّم طغيان السياسة ..»

فقد كان الشرق العربي يعاني اضطرابا في المفهوم الديمقراطي وفوضى في الحياة السياسية، ولم يكن المهجر الا امتدادا لتلك الاحوال.

د - وكان البعد عن القضايا الدينية المبدأ الآخر الذي حرصت العصبة الاندلسية على مراعاته؛ وقد ورد في دستورها مقرونا بمبدأ البعد عن السياسة، لأن الانغماس فيها يؤدي الى نتيجة واحدة هي الشقاق. فالطائفية هي العلة المزمنة التي كان يشكو منها المجتمع العربي ذلك المجتمع الذي كان المغتربون في مهاجرهم جزءاً منه، والطائفية في لبنان كانت كالداء الذي لابرء منه لعوامل تاريخية واجتماعية متعددة، فقد كان التعصب الطائفي في جملة العوامل التي زهّدت المهاجر في بلده، ولكنه كان كمن يستجير من الرمضاء بالنار، وكان الخلاف المذهبي سبقه الى العالم الجديد. فالموارنة في جانب، والأرثوذكس في

---

(١) مجلة «ابولو» ايلول (سبتمبر) ١٩٣٢، وهي المادة الثالثة من دستور الجماعة.

(٢) العدد الاول، السنة الاولى ١٩٣٢ ص ٣.

جانب ثان ،والانجيليون في جانب آخر ،ولكل طائفة كنيستها وجريدتها وناديها ومستشفاها .. وكثيرا ماتشف الطائفة عن نزعات سياسية معينة يكون نتيجتها الطبيعة استفحال الخصومة واستشراء التعصب .

ومما جاء في افتتاحية العدد الاول من مجلة « العصبة » في تفصيل هذا « ان خطتها ألا تتصدى للأديان أو للمذاهب الا في المواقع التاريخية والعلمية التي يراد منها الافادة المطلقة دون اقل مس ولمز ، ولا تلامس الشخصيات ايا كان وجهها ، فاننا نحن نريد ان نبرز صورة صبيحة وضيئة لمجموعنا ، لا ان نعرض صورة تتزاحم فيها الشحناء والبغضاء ،وان نعرض مثالاً انيقا من مجموعنا صقل اخلاقه احتكاكه بالشعوب الراقية ، وخلصت نفوسه من شوائب التعصب » .

هـ – وكان من رسالة العصبة الاندلسية التي جعلت من صفحات مجلتها ميداناً لها « أن تنقل الى الشرق العربي ادب المهجر والى المهجر ادب الشرق . ورسالتها ايضاً ان تطلع العالم العربي على بدائع الفكر الغربي ولاسيما البرازيلي » .(١)

أما الشق الاول من هذه الرسالة فقد استطاعت العصبة ان تحققه الى ابعد مدى حين اقامت المحافل الادبية في ذكرى عدد من اعلام العرب وفي مقدمتهم المتنبي ، ثم زيارة عدد من اعضائها ربوع الوطن واتصالهم بقومهم عن كثب يحاضرونهم عن اخوانهم في المهجر ، ثم يعودون بالتالي وقد حملوا انطباعات جديدة عن وطنهم . ومن قاموا بهذه الزيارات ميشال معلوف ، وحبيب مسعود والياس فرحات وجورج لبان . وقد تم هذا التبادل الثقافي بين الوطن والمهجر على نطاق واسع وعلى صفحات مجلة « العصبة » التي نالت بمادتها ورصانتها منزلة رفيعة في الاوساط الادبية في الوطن العربي ، وكان عدد من ادباء الوطن يغذيها بنتاجه ،

(١) مجلة « العصبة » كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٣ ص ٥٠٥ .

كما كان لفيف من شعراء العصبة الاندلسية وكتابها ينشرون نتاجهم من حين الى آخر في مجلات مصر مثل المقتطف والكتاب وابولو ، فضلا عن مجلات سورية ولبنان وصحفهما . واعداد ابولو على قلتها تحوي قصائد غير قليلة لشفيق معلوف ورياض معلوف والياس فرحات والشاعر القروي وعقل الجر وشكر الله الجر .

وقد كتب ابراهيم المصري وعادل الغضبان وحسن كامل الصيرفي وصالح جودت ومحمود ابو الوفا وسواهم من المصريين في مجلات الكتاب وابولو والمقتطف والبلاغ مقالات نقدية تحلل آثار شعراء العصبة الأندلسية وسواهم من ادباء المهجر وتعرف بنتاجهم ، فضلاً عما كانوا ينشرونه بمجلة « العصبة » من نتاج قرائحهم .

اما الشق الثاني من هذا الهدف الذي حرصت العصبة على تحقيقه وهو « ان تطلع العالم العربي على بدائع الفكر الغربي ولا سيما البرازيلي » فلم يتيسر لها تحقيقه كاملاً . ومن يتصفح مجلدات « العصبة » يلاحظ ان المعرّب عن الادب الفرنسي، وبخاصة شعراء الرومانتكية ، تشكل نصفاً وافياً ، في حين ان ما كان معرباً عن البرتغالية كان محدوداً يقتصر على مادبجته سلمى صايغ حول الادب النسوي البرازيلي ، وما عربه شفيق معلوف من شعر « كاسترو ألفس » وسواه ، او ماترجمه اسكندر كرباج من بعض الاقاصيص . ولعل سبب هذه الظاهرة ان عدداً من كتاب العصبة كانوا من ذوي الثقافة الفرنسية التي كانت تتمتع في لبنان بامتياز خاص ، في حين ان القليلين منهم تمكنوا في اللغة البرتغالية وغاصوا على الادب البرازيلي بوجه خاص .

و ــ احياء التراث العربي في الاندلس : ولعل هذا آخر الاغراض التي رمى اعضاء العصبة الاندلسية الى تحقيقها ، فقد ذكر رئيسها شفيق معلوف انه « كانت غايات العصبة متشعبة اهمها مراجعة ماخلفه العرب وديعة في مكتبات

الامة الاسبانية » ولقد كانت البحوث التأريخية والادبيـــة التي تتناول الحقبة الاندلسية بالدراسة مبثوثة في مجلدات العصبة ، كما توجت على صفحاتها دراسات عديدة حول التراث الاندلسي لبعض المستشرقين الفرنسيين والاسبان من امثال دوزي ، وكوندي ودول ربو ... وسواهم ، وقد اقتصر الامر على هـذا المدى المحدود دون ان تتقدم العصبة تقدماً يذكر فيما اخذت نفسها به برغم ان اسم العصبة الاندلسية اشتق من وحي هذا التراث. ويعلل شفيق معلوف هذا القصور بقوله : « وباستثناء هذا الهدف فقد نجحت العصبة فيما رمت اليه نجاحاً تاماً ، اما السبب الذي منعنا من تحقيق هذا الهدف الاخير فيعود الى اننا لم نتمكن من ايجاد اناس قادرين على التفرغ التام لملاحقة مشروع كهذا » . ومهما يكن من امر هذا التعليل فقد ظلت العصبة الاندلسية بعيدة عن تحقيق ذلك الهدف لاسباب عديدة اهمها بعد امريكا عن اوربا ، وقلة المجيدين للاسبانية والبرتغالية ، واخيراً ضآلة خبرة اعضاء العصبة في تحقيق المخطوطات القديمة وعدم تمرسهم بهذا العمل .

ز ـ نبذ الالقاب : وهذا مبدأ يتصل بالغرض الاول الذي سعت اليـه العصبة الاندلسية وهو « رفع شأن الأدب العربي في البرازيل » والارتفـاع بالادباء عن ابتذال النعوت والالقاب » . ومن قبل ندد ولي الدين يكن تنديداً قوياً بتفشي الالقاب الاجتماعية في مصر ، وسخر ميخائيل نعيمة في كتابة « الغربال » بالنعوت الكبيرة التي كانت تغدق بلا حساب على الناظمين والمتأدبين في الشرق العربي . وحين قامت « الرابطة القلمية » في نيويورك ضربت مثلا بنفسها وأسمت أعضاءها « عمالا » ، ومنذ تأسست في مصر جماعة « ابولو » عاهدت نفسها على خلع الالقاب عن الادباء . فالمغتربون في بيئتهم الغربية الجديدة كانوا أشد شعوراً بتفشي هذه الظاهرة الزائفة بين الادباء ، ولم يسغ لهم ما ورثه العرب عن عهود

الانحطاط والدولة العثمانية من مبالغات في النعوت وتعظيم في الالقاب . وفي ذلك تقول مجلة « العصبة » : « .. ابتذلت النعوت والالقاب في عهدنا ابتذالاً فقدت معه كل قيمة ووزن ، وهي في شرعنا نوع من المخدرات التي كلما زاد منها مدمنها استزاد ، بل هي تفوقها ضرراً فتلك تخدر الاجساد وهذه تخدر النفوس ولهذا انتهجنا لنفسنا الشح بالالقـاب التي يموه بها الأدباء فيلتبس المجلّي بالدعيّ ، والمجيد بالمقصر »[1] . وقد حملت مجلة « العصبة » هذا اللواء في بعض افتتاحياتها التالية ، وحرصت على اخذ نفسها به طوال صدورها .

---

(١) حبيب مسعود ، العصبة كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥ .

الموقف الستراتيجي العربي المناسب

بقلم : أمين النفوري

من أدق الأمور وأصعبها بالنسبة للحلف العربي اختيار الموقف الستراتيجي المناسب وخصوصاً في الأوضاع والحالات الطارئة ، وإن كان هذا الموقف يتأثر الى حد بعيد بمضمون العقيدة العسكرية لهذا الحلف .

ويتوقف حسن الاختيار على توفر المعلومات والأخبار المستمرة في كل ما يتعلق بالأمور التالية :

١ - المعلومات السياسية الخارجية

- الموقف الدولي والتكتلات السياسية العالمية وتبدلات الموقف الدولي والتوازن العالمي وتوزع القوى الرئيسية للدول الكبرى ومكانة الشرق الأوسط السياسية والاقتصادية والعسكرية في السياسة الدولية ، ووضع الدول العربية وأثرها في التأثير في هذا التوزع .

- المواقف الدولية الواقعية وصورتها الحقيقية ودرجة تأييدها أو استنكارها السياسية والاقتصادية والعسكرية بالنسبة لكل من العرب واسرائيل، وحدود تغير وتبدل هذه المواقف حسب نوعية الأزمات .

- الوضع السياسي العالمي العام في الأمم المتحدة وخصوصاً أثناء الازمات .

- النوايا السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية المعلنة والظاهرة للدول الكبرى في المنطقة العربية وأساليب عملها وأهدافها القريبة والبعيدة وخططها المختلفة .

- القوات العسكرية الأجنبية وقواعدها في أراضي الدول المجاورة أو على مقربة من المجال الأرضي والجوي والبحري العربي ، وحجم هذه القوات وتمركزها ومقدار استعدادها والمدة اللازمة لتدخلها ضد البلاد العربية ،والحدود القصوى للدعم الذي تتلقاه هذه القوات ، ونوعية هذه القوات (برية ، بحرية ، جوية) .

- المطارات والموانىء والقواعد الاجنبية في حوض البحر المتوسط وبالقرب من المجال العربي العسكري والذي تتمركز أو تتحشد فيه قوات أجنبية مهددة للسلامة العربية .

– مضمون مواضيع وسائل الاعلام الغربية المذاعة على العالم والمتعلقة بالنزاع العربي الاسرائيلي .

٢ المعلومات السياسية والاقتصادية عن اسرائيل

– القيادة السياسية ونظام الحكم في اسرائيل والخطط السياسية والعسكرية والنفسية الاسرائيلية وتدابير التعبئة ، مع تحديد طاقة اسرائيل العسكرية وأقصى حجم لها خلال فترة معينة وأماكن تمركزها .

– الصفات والخصائص النفسية للطاقة البشرية والعسكرية الاسرائيلية والمستوى الاجتماعي والوطني والاخلاقي لها .

– العقيدة السياسية والاجتماعية والمثل والقيم السائدة في المجتمع الاسرائيلي .

– مراكز الثقل السياسية في المجتمع الاسرائيلي وطبقاته والعلاقات فيما بينها .

٣ – المعلومات عن القوات المسلحة الاسرائيلية

– عقيدتها العسكرية ، أساليب خوض الصراع المسلح ، استراتيجيتها .

– قيادة القوات المسلحة ومستواها ونوعيتها وتنظيمها وتشكيلاتها .

– تشكيلات القوات المسلحة وأنواعها وصنوفها وتمركزها وانتشارها الستراتيجي زمن السلم والحرب واستخدامها الميداني والستراتيجي .

– أنواع المعدات والتجهيزات والتسليح وآفاق تحسينها وتطويرها وتجديدها ومصادرها الاساسية .

– معامل الدفاع الوطني وانتاجها .

ـ الابحاث الكيماوية والجرثومية والذرية وطاقتها ومراكزها ودرجة المساهمة الاجنبية فيها ومنحى هذه الابحاث .

ـ المؤسسات العسكرية المختلفة ومراكز التدريب والمدارس العسكرية .

ـ النشرات العسكرية ومضمونها .

ـ المعنويات والروح العامة والشعبية في القوات المسلحة .

ان التنظيم العلمي والتكنيكي للبحث عن المعلومات وتبويبها وتصنيفها وفحصها بشكل صحيح واستقصائها الفني واستثمارها العاجل والتوزيع الفوري السريع لمضمونها على من يخصه الأمر لهي من الاهمية بمكان عظيم .

وان الحصول على هذه المعلومات ودرجة صحتها يتوقف الى حد بعيد على تنظيم شبكة الاستعلام وشبكة الاستطلاع والمخابرات على مستوى الدفاع الوطني في البلاد المشتركة في الحلف العربي .

ويتوقف سلوك أية دولة ومواقفها المتخذة في المجال السياسي والعسكري والاقتصادي والنفسي والعلمي على وجود مثل هـذا التنظيم المتقن للحصول على المعلومات .

معطيات اتخاذ الموقف الستراتيجي العربي

تأخذ القيادة السياسة والعسكرية للحلف العربي عند دراسة الموقف الأمور التالية في المقام الاول من الاعتبار :

١ ـ الصلة العضوية بين اسرائيل والاستعمار الداعم لها وامكانية الاستعداد لمجابهتها في الزمان والمكان في كل أراضي الحلف وقابلية امتداد ذلك الى بقية المناطق العربية التي لم تزل خارج التحالف .

٢ - المصالح العربية الاقتصادية التي تتأثر من ذلك وخصوصاً البترول .

٣ - الموقف العالمي والتكتلات الدولية .

٤ - القوى العربية مجتمعة ومنفردة .

٥ - الاداة العربية المسلحة الجاهزة .

٦ - درجة التوتر وعتبة الاختلاط والتشابك المحلي والدولي الناتجة عن اتخاذ الموقف الستراتيجي المناسب مع ضرورة التميز بدقـــة بين نقاط الإثارة المحلية لاسرائيل، ومواضع الاحتكاك الدولية المقبولة في الصراع المسلح والحرب الباردة بين المعسكرين العالمين الكبيرين ، والاستعداد دوماً لمجابهة التعقيدات التي قد تطرأ فوراً عليها .

٧ - مستويات التدرج والتصعيد في الضغط على المصالح الغربية المتسابقة لاسرائيل ودرجة حدة الحرب الباردة الناتجة عن ذلك .

٨ - تعين ومعرفة حدود التضحيات المترتبة على اتخاذ المواقف العربية في المجال العسكري والسياسي والاقتصادي وعلى الصعيد الدولي .

ان تدابير الستراتيجية - السياسية العربيـــة الدائمة والمستمرة إزاء اسرائيل هي :

- عزل اسرائيل في المجال الدولي وكسب الأصدقاء .
- التطويق الاقتصادي والسياسي والعسكري .
- الرد والتصدي لتوسعها في المنطقة العربية .
- مقاومة الحرب النفسية التي يشنها الاستعمار والصهيونيـــة على البلاد العربية .

القرار في اتخاذ المواقف :

ان القرارات التي يمكن ان يتخذها الحلف العربي تبعاً للمواقف المتعددة يمكن تصورها على النحو التالي :

الستراتجية السياسية	درجة التصميم على بلوغ الاهداف	الستراتيجية العسكرية المقابلة	نتيجة السلوك العربي
١ – نية سياسية اكيدة وتصميم على الصمود والاسترداد الى النهاية	حزم	هجوم في اطار دولي مناسب مع استعداد عسكري كامل	صحيح وصائب
٢ – نية سياسية وتصميم على الصمود	حزم	دفاع مهما كانت درجة الاستعداد العسكري ومتابعة الاستعداد	صحيح وصائب
٣ – حلول سلمية ومفاوضات صلح	مرونة دبلوماسية وتظاهرات دعائية بالحزم	التراخي في الاستعداد	خطر على الكيان العربي

ان تأكد اسرائيل من عزم وتصميم الدول العربية وصدق الرد على المجابهة يردع اسرائيل والاستعمار . وان تأكد اسرائيل من تردد العرب وقناعتها من عدم صدق الرد على التحدي يشجعها على العدوان .

ان الجدية في التصميم والحزم ومعقولية وصدق العزم عامل نفسي يؤثر في فعالية وجدوى استخدام القوة بقصد احداث الردع عند الخصم

وان سداد وصواب الاستعداد والاهبة وصحة التهديد وتصديقه من قبل الخصم بالاضافة الى فعالية الستراتيجية المتخذة بهذا الشأن، تلعب دوراً هاماً في عملية الردع المستهدفة ؛ كما ان الفشل فيها من الناحية النفسية يفقد تأثير القوة المتوفرة، مهما كانت كبيرة ، كل اعتبار ويجعلها قليلة الهمية في نظر الخصم .

تتعلق فعالية الردع العربي ، في اتباع سياسة معقولة حازمـــة ، وقد يستهدف احياناً الرد بعمل حاسم على نحو محدود . وتتعلق فعالية الردع العربي بعدم قابلية الانتقاص من المجـــال الذي يغطيه الردع العربي في كل المنطقة الجغرافية للحلف مـع الاحتفاظ بدرجات متفاوتة لوسائل الإثارة العربية ضد اسرائيل واشياعها .

ان التصميم والعـــزم لكل من العرب واليهود يلعب دوراً اساسياً في النزاع ، اذ يتغير شكل النزاع فـــيما لو أثار الخوف في نفس احدهما او أعطى انطباعاً زائفاً عن خوفه . ان خلـق واثارة روحية العزم والتصميم الصحيحة في القيادات السياسية والعسكرية وبين صفوف الجماهير العربية وفي القوات المسلحة ودرجة هذه الروحية هي التي تتحكم في نهاية الامر في نجاح او اخفاق الحلف العربي .

ان الموقف الطبيعي والصحيح للحلف العربي هو موقف الدفاع . ويمكن ان نحلل هذا الموقف الدفاعي ونبرزه على الشكل التالي :

الموقف الستراتيجي العربي	التدابير السياسية الدولية	اختيار الاهداف	تعيين اتجاه الضربة
١ ـ الرد والتصدي لهجوم صهيوني ـ استعماري	وفق الخطة السياسية الديبلوماسية للحلف	الدفاع عن : ـ العواصم العربية ـ الموارد الاقتصادية ـ البترول والسدود ـ القوات المسلحة ـ الاراضي العربية	
٢ ـ الهجوم	وفق الخطة السياسية الديبلوماسية للحلف وخطة الحرب	ـ اختيار مركز الثقل عند العدو حسب شبكة الاهداف الستراتيجية الموضوعة في خطة الحرب	عمليات خاصة في الأراضي العربية المحتلة او الأراضي الاسرائيلية او البحر المتوسط

حالات اشتداد التأزم والتوتر وتطوراتها

ينبغي أن تعنى القيادة السياسية والعسكرية للحلف العربي بصورة خاصة، بدراسة حالات اشتداد التأزم والتوتر ومـــدى تطوراتها والتبصر الواعي بكل ذيولها ودوافعها وانعكاسها على الخطط السياسية والعسكرية، واندلاعها المفاجىء، وما يخلفه انفجارها العرضي او المقصود من نتائج وذيول، مع الاستعداد التام للرد والتصدي لكل الاحتمالات التي قد تطرأ نتيجة ذلك، وان لا يكون مفتاح الازمات

بيد الخصم يحركها للاستدراج والايقاع والوصول الى حدود لم تكن متوقعة ولم يحسب لها الحساب الكافي .

وعلى هذا الاساس ينبغي ان يكون في مقدور الحلف العربي معالجة ازمة طارئة لاتتعدى حوادث حدود بسيطة مع امكانية تحولها فجأة وآنياً الى نزاع شامل ،اذا أضمر العدو تطويرها الى عدوان واسع النطاق على دول الحلف العربي . ان وضوح الخطط العسكرية العربية والمعلومات المستمرة عن العدو ونواياه والأهبة الصادقة والاستعدادات العسكرية المستمرة لدول الحلف هي الضامن الوحيد لمعالجة تطور واشتداد التأزم مهما بلغ عنفه .

ونستطيع أن نوضح على وجه التقريب حالات التوتر والتـأزم على الوجه التالي :

الفرضية	الاحتمالات الممكنة	السلوك والتصرف الديبلوماسي في مجال الستراتيجية السياسية للحلف	الموقف الستراتيجي العام	الاجراءات والتدابير العسكرية المقابلة على صعيد الستراتيجية العسكرية للحلف
حوادث حدود أوهجوم جوي محدود أو هجوم موضعي أو هجوم شامل اسرائيلي		الوسائل الديبلوماسية « الاقتصادية « العسكرية العامة « العسكرية الجاهزة	الدفاع أو الهجوم	تبين وسائل الضغط المستخدمة والهدف المطلوب تحقيقه

تم القيادة السياسية للحلف في حالات اشتداد التأزم بدراسة منحـــاه السياسي والعسكري بالاستناد الى المواقف الممكنة والمتصورة لكل من :

١ ــ الدول العربية خارج الحلف .

٢ ــ الدول الاسلامية .

٣ ــ الدول الاشتراكية .

٤ ــ دول العالم الثالث .

٥ ــ الدول الغربية المشايعة لاسرائيل .

٦ ــ الدول الغربية المحايدة .

٧ ــ امريكا وانكلترا .

ان قيادة وادارة العمل السياسي والعسكري في المواقف الستراتيجية الخطيرة وفي الازمات الحادة ، ينبغي ان يجري على نطاق الحلف العربي في غرفة عمليات سياسية وعسكرية تتابع باستمرار تطور الازمات وتتعقبها مع ملابساتها وانعكاساتها المحتملة مع اتخاذ الاجراءات المقتضية والمترتبة عليهـــا والقرارات المبدئية بشأنها وردود الفعل المنتظرة .

ان مراكز الاتصال السياسي والدبلوماسي ووسائل الاتصال والارتباط بالقوات المسلحة وبوسائل الاعلام المحلية والدولية من الوسائط التي ينبغي ان تكون تحت تصرف مراكز القيادة السياسية ــ العسكرية للحلف .

تتطلب دراسة الازمات وحالات التوتر :

ــ وضع لائحة بالاجراءات المناسبة لكل حالة مع تحضيرها وتعميمها على الانساق والمراتب السياسية والعسكرية لتنفيذها عند الاقتضاء

– اختيار الرد المناسب المحضر في مختلف الحالات ، للتصدي والرد على الخصم الصهيوني .

– تصور مجرى الاحـــداث ورسم صورتها المحتملة ووضع الستراتيجية والتكتيك المطلوب اتباعه .

– السيطرة على الازمات بوسائل الاتصال والارتباط ومختلف ادوات العمل السيـــاسي والعسكري في شتى الاوضاع ؛ مع ضرورة توفر الادوات والوسائل اللازمة لهذه السيطرة .

– استخدام الازمات المفتعلة وتأثيرها وانعكاسها كنقاط انعطاف تاريخية انتقالية والاستفادة منها لتطوير المبادهة السياسية والعسكرية وخصوصاً اذا أساء العدو التصرف او التحكم في هذه الازمات وسارت على غير مارسم لها .

تستخدم في الازمات مختلف وسائل الرد الاعلامية والنفسية والعسكرية والسياسية والديبلوماسية وتنسق بصورة موزونة ومعقولة بحيث تقدر درجتها واسلوب عملها والقصد منها والغاية المطلوب الوصول اليها كأداة لدعم السياسة الخارجية للحلف العربي .

تعالج بصورة خاصة طريقة الارتباط واسلوب الاتصال بالقوات المسلحة للحلف اثناء وقوع الازمات او اشتداد الاحداث .

وينبغي في هذا السبيل التمييز بين حالات التوتر الصحيحة او المفتعلة وبين الاستفزازات المقصودة المتعمدة وسياسة الاحراج والاستدراج لعمل عسكري واسع وتحضير لعدوان شامل يفتش عن الذرائع ليسفر عن وجهه بقصد الزج في حرب شاملة . كما يقتضي ايضاً معرفة مقدار عتبة العنف وحدود حافة الانفجار مع ما يستتبع ذلك من تظاهرات القوة وذيول الغارات الانتقاميـــة المفرطة

- الحدود وردود الفعل النفسية والطبيعية المقابلة .

توضع الحدود والاجراءات اللازمة لكل حالة مع الاستعداد للصعود بسرعة الى الدرجات الأعلى في عملية التصعيد السياسية والعسكرية والستراتيجية للنزاع .

ان من الواجبات الاساسية للقيادة السياسية العليا للحلف الاعداد الفكري والذهني المسبق لمختلف القيادات السياسية والدبلوماسية والاعلامية والعسكرية العربية لمثل هذه الحالات من التوتر والتأزم .

يؤثر في اختيار الموقف الستراتيجي العام للحلف العربي وفي اتخاذ القرار في مختلف المواقف بصورة عامة وعلى الأخص اثناء الأزمات واشتداد حالات التوتر الطارئة والمفتعلة او المقصودة في النزاع مع الصهيونية ، حجم القوات المسلحة للحلف العربي واسلوب خوض الصراع المسلح مع الخصم الاسرائيلي . ان اسلوب خوض الصراع المسلح مع الخصم الصهيوني الاستعماري هو :

بالعمل العسكري للقوات المسلحة النظامية للحلف وبالعمل المسلح للمنظمات الشعبية العربية المسلحة المنسقة في اطار الستراتيجية العسكرية للحلف . وبالعمل الفدائي لمنظمات العائدين (الفلسطينيين) في اطار الستراتيجية السياسية والعسكرية للحلف العربي ايضاً .

* * *

وقد طرح شعار حرب التحرير الشعبية بين الجماهير العربية تأثراً بالحرب الشاملة التي يخوضها الشعب الفيتنامي الذي تنتظم مختلف اتجاهاته السياسية في جبهة سياسية واحدة تشرف على الفعاليات العسكرية الشعبية في كل انحاء فيتنام وتوجهها ضد الاحتلال الاجنبي .

وعلى هذا فان قاعدة حرب التحرير الشعبية العربية ينبغي ان تستوحي في تشكيلها مضمون واطار التنظيم الفيتنامي السياسي والعسكري بخطوطه الاساسية العامة لا التفصيلية، اذا أريد ان يكون لحرب التحرير الشعبية فعالية حقيقية ونجاعة فعلية ضـــد الاحتلال الصهيوني والتدخل الاستعماري في المنطقة العربية .

يقتضي التنظيم العسكري الشعبي العربي إنشاء :

١ – قوات الدفاع الجوي في كل عمق الاراضي العربية المهددة .

٢ – قوات محلية خفيفة بمستوى كتيبة مستقلة في الأحياء والمدن تكون مهمتها الدفاع عن المدن في حالة شن حرب شاملة تقوم بها الصهيونية والاستعمار .

٣ – قوات شعبية اقليمية في الاقطار العربية تستطيع التنقل من منطقة آمنة إلى أخرى مهددة ضمن القطر في حالة اجتياح صهيوني – استعماري .

ينبغي ان يشمل هذا التنظيم الشعبي العربي المسلح في الدرجة الاولى :

الاردن : كل اراضي المملكة الاردنية ، وتتركز في جميع مدن وقرى الضفة الشرقية والعاصمة الاردنية على شكل نقـــاط استناد وتحصينات وخنادق عميقة مغطاة ضد خطر القصف الجوي المعادي .

سورية : محافظة القنيطرة ودرعا والسويداء ومحافظة دمشق كلها ومحافظة اللاذقية وطرطوس .

تشمل هذه المحافظات السورية حداً أدنى من المقاتلين يبلغ مائة وخمسين ألف مقاتل شعبي .

لبنان : كل المناطق الممتدة مابين سهل البقاع وبيروت حتى الحـــدود الفلسطينية وتضم حداً أدنى من المقاتلين يبلغ خمسين ألف مقاتل شعبي .

مصر : كل منطقة الدلتا وخصوصاً المنطقة الساحلية الشمالية وطريق السويس ـ القاهرة وينتظم فيها حد ادنى من المقاتلين يبلغ نصف مليون مقاتل شعبي .

ينبغي ان يكون التنسيق كاملاً وتاماً بين التنظيم الشعبي في محافظـــة دمشق (سورية) والتنظيم الشعبي في محافظة البقاع والجنوب (لبنان) ،وبين محافظة درعا (سورية) ومحافظة اربد (الاردن) .

ان الاسلحة الرئيسية للتنظيمات الشعبية وتجهيزاتها هي : البندقيـــة ، الرشاش ، الهاون ، القنبلة اليدوية ، البازوكا ، اللغم ، واسلحة خفيفة مضادة للطائرات .

العمل الفدائي:

يجسد العمل الفـــدائي العربي ارادة الشعب العربي في رفض الوجود والكيان الاسرائيلي على ارض العرب .وهو من ادوات العمل السياسي والعسكري العربي على الصعيد العالمي . لا يقتصر العمل الفدائي العربي على منظمات العائدين (الفلسطينيين) بل ينبغي ان تساهم فيه كل الاقطار العربية بالمتطوعين من ابنائها للانخراط في هذا العمل المقدس الى جانب منظمات العائدين وذلك في اطار التحالف العسكري العربي والقيادة الموحدة .

ويمكن في هذا السبيل ايضاً الاستفادة من شعور التأييد لدى الجماهير

الشعبية في الاقطار الاسلامية حيث تساهم قوات شعبية رمزية من هذه الاقطار في الجهاد لتخليص الاراضي المقدسة وتحريرها من الصهيونية .

يستند العمل الفدائي اساساً :

١ – الى ارادة مختلف انظمة الحكم العربية وكل جماهير الشعب ودعمها ومساعدتها .

٢ – الى دعم القوات المسلحة النظامية في كل قطر عربي .

٣ – الى تدريب ميداني فردي وجماعي وتقني ، والى روح معنوية عالية تستلهم مفهوم الاستشهاد والاستماتة المجدية في كل تصرفاتها واعمالها الحربية . لا يمكن تصور عمل فدائي لا تسنده قوات مسلحة عربية جاهزة للرد والتصدي الآني والفوري على التحدي الصهيوني .

وعلى هذا فان مفهوم حرب التحرير الشعبية والعمل الفدائي العربي لا ينبغي ان يلغي دور القوات المسلحة النظامية في معركة التحرير والاسترداد، او ان يكون من شأنه ان يدخل في الأذهان، ان مجرد وجود قوات شعبية و عمل فدائي عربي ينهي مهمة القوات المسلحة النظامية ويجعلها تقبع في ثكناتها وتمارس عملها كأنها في وقت السلم .

ينبغي أن يعتمد العمل الفدائي في كل قطر عربي على وجود :

١ – قوات مسلحة جاهزة تدعم العمل الفدائي .

٢ – قوات أرضية جغرافية محصنة تتمركز فيها مفارز ووحدات العمل الفدائي اليقظ المتحفز ، السريع الحركة لكل عناصره والذي لا تدهمه المفاجآت الجوية خاصة، والذي يستطيع في كل الظروف والاحوال مقاومة العمل العسكري

المسلح الصهيوني بشكليه الأرضي والجوي ضد هذه القواعد الأرضية الفدائية لمدة ٤٨ ساعة على الأقل بنسبة واحد إلى عشرة .

إن قلة الخبرة تؤدي في هذا المجال إلى خسائر . ففي معركة الكرامة الأردنية حدثت مفاجأة معادية بالانزال الجوي حول معسكر وحدات الفدائيين، وفي معركة السلط حدثت مفاجأة بالقصف الجوي لمعسكر الفدائيين ايضاً ، دون ان تكون عناصر العمل الفدائي قد أخذت أهبتها واستعدادها الميداني في الوقت المناسب للرد والتصدي للهجوم الصهيوني .

٣ – خطة عمل ميدانية تنفذها مفارز العمل الفدائي في الارض المحتلة تنسجم في أهدافها مع الخطوط العامة للسياسة العسكرية للحلف والمتعلقة بالتدابير العسكرية ازاء الاحتلال الصهيوني .

ان أي اجراء مهما بدا بسيطاً وأي تصرف سياسي أو عسكري مهما كان شأنه بالنسبة للحلف العربي يؤثر في مجرى الاحداث السياسية والعسكرية على النطاق المحلي والدولي ، ولذا فان تخطيط هذه الشؤون والتبصر فيها من العوامل الأساسية في التأثير على اتخاذ الموقف الستراتيجي المناسب في اطار الحلف العربي .

المقاومة العربية

وتحرير فلسطين

محمد عزة دروزة

ادار الاستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام الشطر الأول من مقاله الاسبوعي المنشور في اهرام ١٦ آب ١٩٦٨ بعنوان (عن الأمل والموت) على المقاومة العربية في الأرض المحتلة . وقال فيما قاله : ان دور هذه المقاومة لن يكون حاسماً في تصفية العدوان وإنما هو دور مساعد. وحذر من الانسياق وراء العاطفة . وابدى تخوفه من خيبة الأمل التي سوف يشعر بها العرب حينما يرون انها لم تستطع تصفية العدوان . ووصف الذين يظنون خلاف

ذلك بالكسالى الذين لا يعرفون، وانهم من الذين يملأون العالم العربي، الذين لا يرون من الألوان غير الأبيض والأسود بغير ظلال متداخلة بينها. فاما ان تقودهم الخطوة الأولى الى تحقيق الهدف الأخير، والا فهم أسرى اليأس والقعود. وهم كسالى لأنهم يريدون تحميل المسؤولية على غيرهم لكي يريحوا انفسهم ويسكتوا. وهم لا يعرفون حقائق الأمور في المواجهة العربية مع العدو في ظل الأوضاع الراهنة في المنطقة وما يحيط بها. وان الصحفي لا يستطيع أن يجيب الا على ما هو قائم لأن مهمته هي الرصد والتحليل. ثم أخذ يقايس بين جغرافية فلسطين وعدد العرب في الأرض المحتلة وبين جغرافية الجزائر والفيتنام وعدد سكانها ليثبت نظريته في محدودية امكانيات المقاومة وعدم قدرتها على تصفية العدوان.

ومفهوم كلامه أنه يقصد من تصفية العدوان تصفية اسرائيل وليس تصفيه آثار عدوان حزيران التي هي عودة المعتدين الى الحدود السابقة للعدوان. ثم قال: ان تصفية العدوان الاسرائيلي هي مسؤولية الأمة العربية كلها، وعلى الجبهة الأعرض والأوسع حشداً كاملاً وتعبئة شاملة.

واقوال الاستاذ هيكل التي فيها كثير من التعالم والتعالي والرغبة في احتكار المعرفة وادراك الحقائق والمواعظ الفوقية مع جور في وصف الذين لا يرون ما يراه تحتمل كثيراً من المناقشة وفيها نقاط تحتاج الى توضيح بل وتصحيح، وتشتد الضرورة الى ذلك لأنها متصلة بقضية أصبحت قضية العرب الكبرى وأخذت تملأ الأسماع والأذهان وتشدها اليها في العالم العربي وغير العربي على السواء، ولأن للاستاذ شهرة وتأثيراً في قرائه من العرب بل وفي غير العرب كرئيس تحرير كبرى الصحف العربية واوسعها انتشاراً وكمحلل عرف بعمق النظر وسعة الاطلاع والاتصالات ذي مركز مرموق.

ولقد كتبت ما عنّ لي من تعليق على المقال وارسلته اليه وطلبت نشره. حتى يقرأه الذين قرأوا مقاله فلم يفعل . وأعتقد أن اقواله لا يجوز أن تبقى بــدون تعليق موضوعي منشور . وما اكتبه الآن ليس رداً وحسب بل هو توضيح وتصحيح لسير ومدى قضيتنا الكبرى وما توحيه من افكار واقتراحات ملحة .

اني اسلم بصحة قوله (ان تصفية العدوان التي تعنى تصفية اسرائيل هي مسئولية الأمة العربية كلها وعلى الجبهة الأعرض والأوسع حشداً كاملا وتعبئة شاملة) لان هذا هو الذي لابد منه ولا بديل عنه في تحقيق ذلك الهدف الذي هو من اشد الاهداف صعوبة وتعقيداً ، ولان هذا الهدف تحقيقاً وخيبة متصل بالوجود العربي قاطبة وأمنه وسلامته . غير أن صحفينا اللامع لا يذكر كيف يتم ذلك الحشد الكامل والتعبئة الشاملة ، وماإذا كان يتم دفعة واحدة أم انه لا بد له من بداية ، وما هي هذه البداية ؟ وكل مايفيده كلامه ان ذلك شيء والمقاومة القائمة في الارض المحتلة شيء آخر . هذا بالاضافـــة الى ان جملته المذكورة في اسلوبها ومقامها في المقال تشي ــ سواء أراد أم لم يرد ــ باعتقاده بأن ماجاء فيها معجزة وأمنية اكثر منه املاً يمكن تحقيقه ، بل وتشي بأنه انما اوردها لرفع العتب او لمنع قائل ان يقول له (انك وقد قررت ان المقاومة مهما كان أمرها ومداها لن يكون دورها حاسماً في تصفية العدوان على المدى القريب والبعيد جعلت الناس في يأس رهيب ، ولا سيما انك لا تذكر كيف تكون تلك المعجزة وكيف يتحقق ذلك الهدف الذي لا أمان للوجود العربي الا بتحقيقه ، وتقايس بين جغرافية الجزائر والفيتنام لتوقع في الذهن استحالة ذلك) .مع أن الواقع الذي لا يصح اغفاله ولا يفوت كاتبنا الكبير فهمه ان ذلك لا بد له من بداية وأن

المقاومة لم تبدأ بعد عدوان حزيران ٦٧ وانما بدأت في اول سنة ١٩٦٥ ، حينما اخذت العاصفة (جناح فتح العسكري) تقوم بعملياتها في الارض المحتلة . وانها كانت منذ البدء بداية لحرب التحرير ، وكان اسمها (حركة تحرير فلسطين) الذي اختزل منه اسم (فتح) ،وان هذا هو الاساس الذي قامت عليه والهدف الذي استهدفته . بحيث يجب القول ان ما نسميه اليوم (المقاومة) هو في حقيقته اساس استهدف تصفية اسرائيل وتحرير فلسطين ولم يكن هدفه الإزعاج العابر ولا يصح الفصل بينهما . وأغلب الظن ان الاستاذ هيكل ينطلق من حجم وراهن المقاومة . ولكن هذا غير سلم . وكل مقاومة وعملية تحرير في أي بلد — بما في ذلك الجزائر — قد بدأ مثل بداية حركة مقاومتنا ، ثم نما وتطور حتى حقق غايته . وليس هناك اي مانع لذلك بالنسبة لمقاومتنا، بل الدلائل تدل على انها تسير في طريق النمو والتطور حتى تبلغ غايتها ان شاء الله .

بل لقد كانت هذه البداية بمداها وأساسها وهدفها المذكور قبل عمليات العاصفة . وذلك حين ادركت الحكومات العربية حقيقة كانت تتجاهلها، وهي أن تحرير فلسطين لن يتحقق الا بحروب شعبية يكون الفلسطينيون طليعتها وأصحاب المبادرة فيها ،فقرر مؤتمر القمة الأول انشاء كيان فلسطيني يتسلم زمام المبادرة، وانبثق عن ذلك منظمة تحرير فلسطين التي كان اساس ميثاقها تصفية اسرائيل ، وجيش التحرير ليكون الوسيلة العسكرية الى ذلك ، وإقامة قيادة عربية موحدة لحماية هذا العمل وتنظيمه ومده ورعايته حتى ينمو ويقوى ويتسع ويسير في طريق هدفه الخطوات الواسعة من ناحية ، ولحماية حدود وأجواء الدول العربية من عدوان اسرائيلي قد يترتب عليه من ناحية اخرى . وقد رصدت الأموال اللازمة له في ميزانية الحكومات وبترتيبات شعبية متنوعة .

وكان هذا اقوى بما لا يقاس من بداية حركة تحرير الجزائر لأنه كان مؤيداً سياسياً ومادياً ومنذ بدئه من جميع الدول العربية صراحة وعلناً ورسمياً في حين أن العون الواسع والتأييد الشامل لحركة الجزائر لم يتيسرا الا بعد بضع سنين من بدايتها .

ولقد تمت خطوات واسعة فعلية في سبيل التنفيذ . فقامت (الدولة الفلسطينية) – التي كان اسمها الكيان الفلسطيني – ومنظمة تحرير فلسطين بتشكيلاتها وجيشها الذي تجاوز عدد أفراده العشرة آلاف وضباطه المئة من مختلف الرتب والذي أخذ يتلقى التدريب على أعمال المغاوير وسائر الأسلحة وغدا فعلاً جاهزاً للسير في مهمته . وتعلقت آمال العرب قاطبة بهذا الحادث السعيد – الذي طال انتظارهم وهم يجترون آلام نكبتهم وكارثتهم الحاطمة وذلها ويتحرقون أشد التحرق الى اخذ ثارهم وغسل عارهم واسترداد الجزء الغالي المقدس من وطنهم – واستعدوا بالاضافة الى الحكومات لدعمه على مختلف المستويات والصور . وكان هذا يعني أنه صار من المتوقع أن يكون وراء ذلك مع الأيام حشد كامل وتعبئة شاملة على الجبهة الأوسع والأعرض حسب تعبير الاستاذ هيكل . وكل هذا لم يكن متيسراً بل ولا عشيره لبداية حرب الجزائر .

ولما تعثر السير بالمهمة للأسباب المعاومة أقدمت فتح على حمل الراية والنزول الى الميدان بجناحها (العاصفة) للبدء بالمهمة . وأخذت تلفت الأنظار وتستقطب الأفكار والآمال .

ولقد كانت حرب حزيران وسيلة عظمى لنمو هذه البداية وتطورها ودعمها، بما كان من اتساع نطاق عمليات العاصفة ونتائجها الكبيرة المتنوعة في العدو ، ثم بما كان من انضمام ونزول عناصر عديدة من جيش التحرير وغيره من المنظمات

الأخرى - التي كانت تتسمى بنفس التسمية مع اختلاف في الألفاظ (جبهة التحرير الشعبية التابعة لجيش التحرير ومنظمة التحرير - الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - طلائع حرب تحرير فلسطين) - الى الميدان معها، واتساع نطاق العمليات العسكرية في مختلف انحاء الارض المحتلة حتى غطتها، ونتائجها الواسعة الكبيرة في العدد، وما كان من تدفق الاسلحة المتنوعة والآلاف المؤلفة من الفدائيين، والدعم المادي والادبي من الحكومات والهيئات، حتى لم تكد تبقى حكومة عربية واسلامية وصديقة مع هيئاتها الشعبية إلا واعلنت تأييدها واستعدادها لدعمها مادياً وسياسياً واعتبارها إياها بداية صحيحة لعمل مشروع وحق طبيعي في سيره وهدفه النهائي، وانشدت اليه الافكار والاذهان واجهزة الأعلام في كل أنحاء العالم وبدأ يظهر تأثيره القوي في العدو.

ونحن لا نوغل في التفاؤل وندعي أن التعبئة الشاملة والحشد الكامل قد تم او هو قريب من التمام. ولكن الذي نقصده - والذي هو حقيقة لا يجوز انكارها - ان ما يجري هو حركة تحرير شعبية قابلة للنمو والتكامل، وان الواجب يقضي على كتابنا أن ينظروا اليها بهذه النظرة الواقعية المتصلة اشد اتصال بفكرة وهدف تصفية اسرائيل لأنها بدأت تسير في طريقها قبل عدوان حزيران ويجب اعتبارها مستقلة عنه مهمة ومدى. ومن حقها وامكانها البقاء والاستقرار مع اطراد النمو والتطور والاتساع بعد إزالة آثار هذا العـــدوان الطارىء بالحل السياسي او العسكري التي هي مهمة ومسؤولية الحكومات العربية وجيوشها الرسمية، من حيث أن هذا العدوان وقع على ارضها الدولية القانونية، وعليها ولها وحدها طرد العدو. وإذا كانت الحركات الفدائية سوف تساعد على ذلك فانها لم تكن أصلاً من أجله، وانما كانت من اجل الهدف الاساسي الذي يبقى وارداً واجب التحقيق.

ويجب أن يدعو الدعاة الى المزيد في دعمها ورفدها ماديا بالحشد الكامل والتعبئة الشاملة على الصعيد العربي العام على اعتبارها البداية الصحيحة لذلك، وسد ثغراتها التنظيمية والمادية والسياسية حتى تصبح فعلاً حركة تحرير شعبية عربية شاملة وتستطيع أن تستمر في جهادها منضوياً فيها عشرات الآلاف ومغطية في عملياتها جميع الارض المحتلة ومنزلة الضربات الساحقة المدمرة في قوات العدو ومنشآته وزارعة الرعب والشلل في الارض التي يحتلها وسكانها ومانعة من نموه واستقراره داخلا وخارجاً الى أن تتم مهمتها وتحقق غايتها مهما طال الزمن وعظمت التضحيات، لا الى فصلها عن هذا الهدف وادخال اليأس في قلوب الناس منها وتعليق تحديد الهدف على معجزة تتم دفعة واحدة .. ولا سيما انه ليس هناك بديل ولا يمكن أن يكون هناك بديل ـ من حيث ان الحكومات العربية لن تستطيع بسبب الظروف والمواثيق الدولية القائمة أن تقوم فعلاً بعملية تصفية اسرائيل القائمة في ارض ليست ارضها، حتى لو قدرت على ذلك . في حين أن الشعب العربي الفلسطيني المدعوم بالشعب العربي في جميع اقطار العرب هو المؤهل الوحيد لذلك الذي لا تقيده الاعتبارات الدولية، والمعترف بحقه الشرعي والقانوني والدولي والطبيعي في وطنه . والتصفية التي يقول عنها الاستاذ هيكل هي مسؤولية الأمة العربية لا مفر لها من بداية وهذه هي البداية .

ومهما كانت جملة الاستاذ هيكل تشي بأفكار سلبية ويائسة، فإنها تفيد على كل حال أنه يسلم بإمكان تصفية اسرائيل حينما تحشد الامة العربية حشدها الكامل.. وهذا يعني ان جغرافية فلسطين وعدد عرب فلسطين في الأرض المحتلة ليس من شأنهما منع التصفية في النهاية . وهو حق كل الحق . ويجعل تلك المقايسة ـ التي حلا للاستاذ هيكل ان يسوقها لاثبات عدم امكان المقاومة القيام بالدور الذي قامت

به الجزائر ـ غيرذات موضوع بحيث لايصح أن نذكر جغرافية فلسطين وبشرها العرب واليهود في معرض التدليل على عدم امكان تحقيق ذلك الهدف . ولا سيما انه لا خيار لحركة تحرير محددة الهدف في مكان معين لم تخلقه ، وعليها ان تقتحم العمل فيه مهما كان في طريقه من عقبات وموانع . والمهم ان تبدأ بداية صحيحة وتكون قابلة للنمو والاتساع والتحويل، وهو الواقع الذي لايجوز انكاره بالنسبة لحركة تحرير فلسطين القائمة، بل والذي يسلم به معظم العرب من رسميين وشعبيين ويتعلقون بها على هذا الاعتبار .

ويجب ان يلحظ ان حرب حركة التحرير مع اسرائيل ليست حرباً نظامية بين جيشين، بل حرب عصابات كراً وفراً . فلاينبغي ان يورد تفوق القوات الاسرائيلية بالعدد والمعدات . وهذا كان على كل حال شأن الجزائر وغيرها. ولم يبلغ عدد المجاهدين الجزائريين في أحسن الاوقات خمس عدد القوات الافرنسية ، فضلا عن التفوق العظيم عندهذه بالمعدات النقلية البرية والجوية التي لم يكن يملكها المجاهدون .

ومع ذلك ففي الجغرافية الفلسطينية مشابه للجزائر اذا كانت نحاول المقايسة للاستاذ وغيره ممن يرون رأيه . فالبلاد العربية المجاورة لفلسطين لا تقل سعة وامكانيات عن ما يجاور الجزائر ، فيكون لحركة تحرير فلسطين فيهاما كان لحركة الجزائر في جوارهـا من منطلق، كر وفر وملجأ ومستمد . وفي فلسطين جبال وغابات وكروم ووعور وملاجيء وصحار تتيح للحركة ما كانت تتيحه جغرافية الجزائر لحركتها . وكون الفلسطينيين ليسوا وحدهم في الميدان، وكون العرب في كل اقطارهم ردفاً بشرياً لهم ، يعوض بما لا يقاس عليه فرق النسبة بين عدد عرب فلسطين الى عدد اليهود في الأرض المحتلة .

وهناك اعتبار آخر يزيد في التعويض بل لم يكن قائماً بالنسبة للجزائر ـ وهو أن قضية تحرير فلسطين وتصفية اسرائيل فيها ليستا قضيتين خاصتين بعرب فلسطين . بل هما عامتان قويتان عربيتان ، لأن وجوداسرائيل في فلسطين مهدد بصورة مستمرة وخطيرة لسلامة بلادالعرب جميعها وامنها، بل ولحريتها واستقلالها، ومعرقل لوحدتها وازدهارها ونموها وتكاملها . فاليهود يعرفون أن وجودهم رهن ببقاء العرب ضعفاء متفرقين متخلفين قلقين مضطربين وفي خوف دائم من العدوان . والاستعمار الذي غرس دولتهم في صميم البلاد العربية بقصد فرض استمرار هيمنته عليها واحتكار ثرواتها ، يعرف أن مقاصده لا تتحقق الا باستمرار وجودها . هذا فضلا عن ما يترسمه اليهود من توسع امتلاك في مزيد من الارض العربية حتى تقوم دولتهم الكبرى من النيل الى الفرات . ولو تركهم العرب وشأنهم وصالحوهم ـ كما يقول الجبناء الانهزاميون والعملاء الخائنون ـ واعترفوا بواقع اغتصابهم جزءاً مهما وعزيزاً من بلادهم وتنازلوا عما نهبوه من اموالهم واملاكهم وأراقوه من دمائهم وانتهكوه من حرماتهم ومقدساتهم واوقعوه فيهم من الاهانات والجرائم التي تقشعر لها الابدان ظلماً وبغياً ، لما تركوهم . وكل ما يكون انهم يتيحون لهم فرصة يستجمون فيها ويستقوون للعدوان عليهم مرة بعد مرة بعد مرة . فجميع العرب شعوباً وحكومات ملتزمون التزاماً مصيرياً بحشد قواهم والاسهام الفعال في النضال ضد وجود إسرائيل وإزالتها .

ولا يفوتنا أن نذكر ما لم يذكره الأستاذ هيكل في مقالاته ، وهو أن هدف النضال في فلسطين أشد صعوبة وتعقيداً من هدف المجاهدين الجزائريين ، بل ولعله أشد الأهداف التحريرية العالمية صعوبة . فالجزائر كانت معظمها لأهلها، وكل دعوى فرنسة انها نصت في دستورها انها جزء منها ، وحاولت

أن تجعل ذلك حقيقة . ولكنها اخفقت ، وظلت تحف على كل حـــال بصفة المحتل عسكرياً الذي ليس له في الارض جذور . وظلت الجزائر عربية اسلامية الوجه واللسان والروح والهدف والتطلع . وانتصار حركة تحرير الجزائر لم يكن تحطيماً لفرنسة كدولة عظمى . وظلت فرنسة كما هي ،بل زادت عظمتها لأنها تخلصت من عقدة حمقاء انهكتها واستنزفت اموالها وقواها على غير طائل كبير الا الغرور السياسي . في حين أن هدف النضال الفلسطيني هو ازالة دولة تعترف بها معظم دول الارض،التي لا تسيغ زوالها وتعترف لها بحق البقاء وتصر عليه ، بما فيها اصدقاء العرب ، ومؤيدة أشد تأييد مادي ومعنوي واوسعه من الصهيونية واليهودية العالمية المتغلغلة في كل قرنة من قرن الارض،ذات النفوذ القوي المؤثر بما تملكه من مختلف الاسباب والوسائل في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاعلامية في معظم دول الأرض ، ومتحالفة في نفس الوقت مع اعتى القوى الاستعمارية الامبريالية التي ترسم معها ابقاء البلاد العربية مجزأة واهنة متخلفة خاضعة لهيمنتها واستغلالها ، ومؤيدة منها أشد تأييد مادي وسياسي وبمختلف الوسائل والمظاهر .

وهذا ما سوف يجعل المعركة بين اسرائيل وبين العرب طويلة جداً . وسوف تكلف العرب الجسيم الهائل من التضحيات البشرية وغير البشرية . وقد يقتضيهم حشد عشرات الآلاف دوراً بعد دور بعدهم عشرات الآلاف الاخرى .

والمهم المهم ، هو اولاً تشديد الدعوة للحكومات العربية وبخاصة التي تحيط باسرائيل ـ ونعني مصر وسورية والاردن ولبنان والعراق ـ بإحياء معاهدات الدفاع المشترك ، واعادة جهاز القيادة العربية الموحدة على اساس فعال وباسرع وقت ممكن على الأقل ، والارتفاع بسبيل ذلك فوق كل اعتبار وهاجس ، لأن

المعركة مصيرية يجب أن يهون في سبيلها كل شيء ، ووضع جميع الطاقات الحربية لهذه الحكومات ـ ولمن يشاء من الحكومات العربية المساهمة الفعلية في المعركة الحربية ـ تحت إمرة هذه القيادة ومدها بكل مقومات الفعالية لتقوم بمهمتها التي وجدت لهـــا وهي تنظيم وتدريب ومد حركة التحرير الشعبية ورعايتها من جهة وحماية اجواء وحدود الدول المجاورة من عدوان تقوم به اسرائيل انتقاماً يائساً وانحيازيا من ضربات الفدائيين المدمرة .

وهذه مسألة بالغة الأهمية والخطورة ، والحاجة ملحة أشد الالحاح اليها ، ويجب بذل كل جهد في سبيل تحقيقها بأسرع وقت ممكن .

وثانياً تشديد الدعوة الى تحرير ما ظل جمداً من كتائب جيش التحرير ولم تشترك الى الآن في العمل الفدائي .

وثالثاً تشديد الدعوة الى توحيد المنظمات الفدائية العديدة التي تعمل الآن في الميدان ـ بما فيها العناصر المنتسبة الى جيش التحرير ـ واقامة قيادة واحدة لها تتولى كل مسائل التنظيم والتخطيط والتمويل والتدريب والتجهيز . فبهذا ـ وبهذا وحده ـ يمكن تصعيد العمل التحريري وتقويته لينضوي فيه عشرات آلاف المجاهدين ويغطي جميع الأرض المحتلة ويصبح قادراً على توجيه ضرباته المدمرة واحداث الشلل في العدو وايقاف نموه والتعجيل في انهياره .

وأنا على يقين انه اذا ما تحقق ذلك فسوف تتغير الصورة تغيراً كبيراً ، ويأخذ العمل مداه الطبيعي من الخطورة والعمق والبعد والشمول وقوة الأثر في العدو وفي العرب وفي العالم أجمع .

القصة

باولينا PAULINA

للكاتب المجري : ديزو كوزتولاني DEZSO KOSZTOLANI

ترجمة : محمد سامي فريد — القاهرة —

ديزو كوزتولاني في نظر النقاد أعظم الشعراء التأثيريين الذي عرفهم تاريخ الادب المجري قاطبة . ولد في « سرابادكا Srabadka » بالمجر في التاسع والعشرين من مارس ١٨٨٥ لأب كان يعمل ناظراً لاحدى المدارس هناك . وقد أتم كوزتولاني دراسته الجامعية في جامعة بودابست متنوياً أن يصبح مدرسا بعد التخرج ، لكنه تحول الى الصحافة وانضم الى اسرة تحرير مجلة Nyugat الأدبية . وفي عام ١٩٠٧ أصدر ديوانه الشعري الأول . لكن صيته أخذ في الذيوع بعد أن نشر مجموعة من القصائد عام ١٩١٠ تعد من روائع الشعر المجري ، هي انطباعات رقيقة ومؤثرة لطفل صغير عما يحسه ويعانيه في عالمه المحيط به . وترجع شهرة ديزو كوزتولاني أساساً الى حساسيته المفرطة في اختيار الفاظه ، وصدقه في تصوير تجاربه الشخصية وقدرته الفائقة على التعبير ، فجاء شعره سلساً رائقاً وبسيطاً في آن وقد تخدع القارىء للوهلة الاولى بساطته ، تلك التي تخفي وراءها من المعاني أعمقها وأقواها .

وهو كشاعر مرهف الحس تؤثر فيه مظاهر الضعف الانساني التي يراها في مجتمعه، ويتعاطف معها في عذوبة ويسر.

وديزو كوزتولاني مولع بسحر الموت، يرى فيه عالماً أثيرياً لانهاية له، على إيقاع رقصته يغني أجل قصائده.

لكن كوزتولاني لم يكن شاعراً فحسب، فهو روائي وكاتب قصة قصيرة أيضاً. وهو روائياً لا يقل ابداعاً عنه كشاعر وهو روائياً. رفعه النقاد الى مصاف كبار كتاب القصة المجرية. وقد أغرم كوزتولاني بروما القديمة وجوها الاسطوري، وله رواية عن «نيرون» طاغيتها المشهور بالإضافة الى عدد من القصص القصيرة ذات الجو الروماني القديم (منها هذه القصة التي نقدم لها) وله ايضاً عدد من الروايات نذكر منها — على سبيل المثال لا الحصر — «قصة خادمة» التي كتبها عام ١٩٢٦. وربما كانت روايته «فتاة العجائب» Wonder Maid التي وضعها عام ١٩٤٧ من أحسن ما كتب من روايات. وهو فوق هذا وذاك أحسن من ترجم الشعر، وله على ترجمته مقدرة فذة لاتبارى أذهلت النقاد والقراء على السواء.

على ان كوزتولاني اهتم في أخريات عمره بالحفاظ على أصالة اللغة المجرية ونقائها مما علق بها ودخل عليها من الفاظ طفيلية دخيلة، فانصرف الى تلك المهمة بجماع نفسه معرضاً عما كان يشغل الناس من أمور كانوا يعدونها في ذلك الحين من مشكلات العصر الكبرى، منصرفا الى الهدف الذي كرس نفسه له ما بقي من عمره.

ولكوزتولاني وصف معروف عن الشاعر في نظره، يجمل بنا ان نورده هاهنا، فهو يرى أن الشاعر المجيد إن هو الا جندي يذود عن حصنه كجنود الحصون الاسبانية وهو القيم على الجمال والمدنية والانسانية ».

وقد توفي كوزتولاني في بودابست في الثالث من نوفمبر عام ١٩٣٦.

* * *

على ضفاف نهر الالتين بروما حانة يتردد عليها البحارة في الأمسيات حيث يشربون النبيذ الاحمر، وكانت باولينا — الساقية الصغيرة التي تحمل الاطباق — ذات شعر احمر وعينين زرقاوين.

وذات ليلة بينما كانت تمر بجوار احدى الموائد حاملة طبقاً من السمك المشوي، إذ بأحد صانعي السفن يتحسس ثيابه ويهب فجأة صارخاً:

ـ أين نقودي ؟ لقد سُرقت . اللص .. اللص !

وحدث هرج ومرج حول الرجل ، رحب به اللص ، وهو بجار شاب .

وقال عدد من الرواد وهم يتحلقون حول باولينا :

ـ انها هي السارقة .

ووسط هذه الضجة اندفع جنديا الحراسة الليلية الى داخل الحانة يقعقعان بسيفيهما .

وأحضرت الأسيرة أمامهما .

ـ « هات النقود » .

ـ « لم آخذها .. »

ـ « إذن ، فستأتين معنا أيتها الفتاة »

فصرخت باولينا :

ـ « لا .. لا ، انا بريئة »

وتسمرت في مكانها لاتتزحزح .

صاح أصغر الجنديين ، وكان باحدى عينيه حول :

ـ « هيا .. تحركي »

ودفعها بشدة فتدحرجت الى الشارع ، وهناك وقفت من جديد كالتمثال

فتقدم الجندي الثاني ـ وكان اطول من زميله ـ وتحسس ذراعها فصرخت الفتاة :

ـ « لاتلمسني ، دعني والا عضضتك »

فضحك الجندي ، لكنه عندما قبض على ذراعها ليسوقها أمامه . وثبت الفتاة اليه كالنمرة وانشبت أظفارها في انفه فتدفق الدم غزيراً منه .

ثم جاء الجندي « الأحول » يحاول معها بدوره فتحولت اليه باولينا فجأة وبصقت في وجهه صارخة .

— « أيها الخنزير »

وانسدل شعرها الاحمر واستعرت عيناها الزرقاوان .

— « أيها الخنزير ، النجدة ياأهل روما ! النجدة ! إني اكـــدح طول النهار .. أنا فقيرة وبريئة .. أقسم بقبر أمي .. أقسم بقبر أمي العزيزة اني بريئة .. ياأهل روما .. ياأهل روما ! »

ووقف أهل روما الذين خرجوا للنزهة في تلك الأمسية الصيفية الهادئة يرقبون الجنديين المرتزقين في دهشة . كانا يصارعان الفتاة ويكيلان لها الضربات بقبضات ايديهما وسيفيهما ، ورغم ذلك لم يستطيعا التغلب عليها فحملاها حملا ومضيا بها .

صرخت الفتاة وهي تضرب بساقيها الهواء في كل اتجاه .

— « ايها الوحوش .. ايها الوحوش .. اقتلوني .. اذبحوني ورغم ذلك فسأخبر كل مخلوق أن هذا الجندي الاحول النحس قد حاول الليلة الماضية ان يعانقني في الحانة .. أيها الأوغاد .. كلكم اوغاد .. كل المرتزقة أوغاد .. حتى قيصر سيدكم وغد .. قيصر أيضاً وغد .. انقذني يا ربي »

ورفعت يديها الى السماء الصافية .

* * *

استيقظ الناس على صرخاتها التي ظلت تتردد في جنبات شوارع روما فقاموا متثاقلين في ملابس النوم الى الأبواب يصغون الى الصرخـــات الوحشية والضجة الفظيعة التي طافت بالمدينة من شارع لشارع مع الفتاة المقبوض عليها .

وكان ثمة قمر أصفر في تمامه يسبح فوق الكولسيوم في ذلك الحين .

وعندما بلغت الضجة (فيللا) ميوتيوس أرجنتيوس الفيلسوف الرواقي كانت الفتاة ما تزال تهدد وتتوعد ، ولم يكن صوتها قد بح بعد من فرط التوتر فشقت سكون الليل بصراخها .

كان الفيلسوف منشغلا في تلك الساعة المتأخرة من الليل بالجدل مع الشاعر روفيوس بالقرب من النافورة في ردهة الفيلا ، ونهض الاثنان من المقعد الرخامي وجمدا في مكانيهما حتى أخذت الفتاة الصارخة بعيداً ، لكن صوتها ظل مسموعاً عبر الشوارع المظلمة الضيقة ، وتساءل الفيلسوف :

— « لماذا تصرخ ؟ ماذا تريد ؟ »

فأجاب الشاعر :

— « العدالة »

ورد الفيلسوف :

— « هراء . . كل العواطف الانسانية هراء »

فقال الشاعر :

— « كل العواطف الانسانية سامية . . كم كانت سامية هذه الفتاة . . كم كانت قوية . ان كل الغضبى ، وكل من يلكون الحق اقوياء . لابد وأن هذه الفتاة على حق » .

— « ولماذا تظن ذلك ؟ » .

— « لأنها كانت في غاية الغضب »

تساءل الفيلسوف وهو يفكر في عمق :

– « وماذا يفيدها ذلك ؟ في غرفة الحرس ستضرب حتى يسود جسدها ويزرق ، بل ليت الأمر يقف عند هذا الحد فقد يقذفون بها في نهر التيبر » .

قال الشاعر

– هذا لا يغير من الأمر شيئاً ، فقد كانت العدالة تمشي في الطرقات وهي تصرخ ، وقد سمعنا كلمتها . لقد نهضنا من فراشنا ولم نقو على المضي في النوم .. لم نعد نستطيع أن نستأنف مناقشتنا السابقة لأننا نفكر فيها .. في العدالة . وها أنت ترى أننا ما زلنا نتحدث عنها .. ولكن هذا معناه بلا شك » .

نشيد البقاء

سليمان العيسى

« نشيد البقاء » خاتمة قصيدة طويلة تقع في أحد عشر نشيداً بعنوان : « الشاعر والأصوات...» يصطرع فيها نقيضان : قوى القهر والسيطرة وصوت الشاعر الذي يقاوم حتى في أحلك ساعات اليأس وينشد مع الأبرياء المنزقين النشيد التالي في ختام القصيدة :

كجذورِ السنديانْ
سوفَ أبقى
كالصّحارى ، كالزمانْ
سوف أبقى
ومن القَبرِ العتيقْ
ومن المهوى السحيقْ

ومنَ الموت الذي يُرهقني
ومن الذلِ الذي يسحقني
عربياً .. سوف أبقى ..
شاعراً للريح .. إنساناً سأبقى
كجذور السنديانْ
كالصّحارى ، كالزمانْ
سوف أبقى ..
سوف أبقى ..

* * *

ياعصافير النخيلْ
في رمالي
ياقناديل الرحيلْ
في خيالي
إنني هاجرتُ .. هاجرت طويلا
وتمزقتُ .. تهاويتُ قتيلا
عن جوادي ألف َمرّة
في طريقي ألف مرّة
يارياحَ الموتِ ، أرديتُ قتيلا
ومن القبر الذي يخنقني
ومن الموت الذي يُرهقني
عربياً .. سوفَ أبقى

شاعراً للريح ، إنساناً سأبقى
كجذور السنديان
كالصحارى ، كالزمان
سوف أبقى
سوف أبقى

* * *

ميتٌ ماءُ محيطي كالعدمْ
غار فيه الموجُ ، عفّاه القدمْ
زرعوا فيه جزيرهْ
ثبّتوها بعظامي المستجيره
ميتٌ ماءُ محيطي الأزرقُ
لايعي ، لاينتخي ، لاينطقْ
وهبوني غُرتُ فيه
رملةٌ في تيه تيه
المحيطُ الميتُ باقِ
وانا ملاحهُ المهزومُ باقِ
وستنهارُ ، ستنهارُ الجزيرهْ
عندما تصحو عظامي المستجيرهْ
ومن الذل الذي يسحقني
ومن الموت الذي يرهقني
عربياً .. سوف أبقى

شاعراً للنور .. إنساناً سأبقى
كجذورِ السنديانْ
كالصحّارى ، كالزمانْ
سوف أبقى
سوف أبقى

* * *

سحقتني غفوةُ التاريخِ يوما
أكلت جلدي نيوبُ الغزْوِ يوما
هزَمتني الريحُ سوداءَ الحناجِرْ
زرعَتْ روحي مقابرْ
هزَمتني .. هزمتني
كنتُ في أعماقِ سجني
كنتُ مشلولاً ، كسيحَ القدم
كنتُ مغلولاً ، ذراعي وفمي
كنتُ أشرى وأباعْ
في مجاعاتِ الضّياعْ
إنني أفتـح في الشمس ، بوهجِ الشمسِ ، عيني
لأخاف القبرَ ، لأغمضُ عن موتي عيني
رحبَةٌ مقبرتي لا تزدردْ
وستبقى كحكاياتِ الأبد
وانا الميْتُ الذي ينتفضُ

آملاً او يائساً ينتفضُ
مُقْدِماً او هارِباً ينتفضُ
ومن السجن الذي يخنقني
ومن الموتِ الذي يسحقني
ومن الناب الذي يَمضَغني ، يَبْصُقني
عربياً سوف أبقى
شاعراً للأرض ، إنساناً سأبقى
كجذور السِنْديانْ
كالصَّحارى ، كالزمان
سوف أبقى
سوف أبقى

أيها الوهمُ الكبيرُ المفترس
أيها الليلُ الشرِسْ !
أنت يامن تزرع الظلمَ جزيرَهْ (١)
وبأجيالي الضريرَهْ
بعظامي المستجيرَهْ
تكتبُ العمرَ لها صبحاً فصبحاً
تتبنّاها ، وتسقي جوعها قتلى وجرحى
أيها الظلُّ الكبيرُ المفترسْ

---

(١) يرمز الشاعر بالجزيرة لاسرائيل وبالمحيط الميت للعالم العربي .

أيها الليلُ الشرسْ !
لن تموتَ الريحُ في هذي الصحّاري
وسيبقى في الرمالِ السودِ نجمٌ للحَيارى
ومن القبر الذي يُرهقني
ومنَ اليأس الذي يَسحقني
من غياباتِ السراديبِ التي تُوثقني
عربياً سوف أبقى
شاعراً للحب ، إنساناً سأبقى
كجذورِ السنديانْ
كالصحّارى ، كالزمانْ
سوف أبقى
سوف أبقى

* * *

لستُ وحدي صيحةَ القهرِ على هذا الأديمِ
واسعٌ كالفلكِ الدوّارِ بؤسي وجحيمي
كلُّ مصلوبٍ على الرملِ رفيقي
كلُّ محرومٍ على الأرضِ شقيقي
وبجلدي - لا تلوموني - بجلدي أتنفّسْ
وخيامي السودُ في عينيَّ وحدي تتكدَّسْ
يا قبورَ الصامتينْ
في الظلام !

يا زفير البائسينْ
يا خيامي !
يقطعونَ الغَرسْ
يُطفئونَ الشمسْ
ومنَ الأرضِ التي تنطفِىءُ
لا صَدّى عن أهلنا ، لا نبأُ
من رَمادِ الغَسقِ
والدَّمارِ المطبِقِ
عربياً سوفَ أبقَى
شاعراً للفجرِ ، إنساناً سأبقَى
كجذورِ السنديانْ
كالصحارَى ، كالزمانْ
سوفَ أبقَى
سوف أبقَى . .

أعطنا خبزًا .. وملحًا ..

شعر : محمد أحمد العزب – القاهرة

حين لا ندرك أنّا فقراء

كلّ ما فينا تسوّلناه نحن الغرباء

من فراغات غبيّات الرؤى

تأكل الموتى ، وتستجدى من الموتى الولاء .

حين لا ندرك أنّا لا نكونْ

ما اردناهُ . .

ولا الكونُ يكونْ

فلنُخبّىءْ جرْحنا في الخاصره

ولتكن أيامُنا نهر جنونْ !

* * *

الذي فينا . . جدار قائم خلف جدار .
يرشح الخوفُ عليها والغبار
ليته كان جداراً واحدا
لو هدمْناهُ تعانقْنا على صدر المدار .
ليته كان بلا سور مخيفْ
ألفُ تنّين على أبوابه . .
ألفُ وصيف
ألف صيفٍ راكدٍ . .
ألفُ خريفْ
نحن شيّدناه بالخوف على كل مسار
من عظام الطير . .
من حزن الصغار
من عيون الصمت والتجوال في ليل البحار
من حكايانا الطّوال
وحكايانا القصار
« كان يا ما كان » . .
هذا كل ما يبقى لنا . .
وعلى الأرض الدمار ! !
وعلى الأرض الدمار ! !

جانبياً . .
جانبيًا . .
نكتب الشعر رديئاً غطيًا
مقطع للنجم في صدر السماء
مقطع للبرعم النامي على خفق الضياء
مقطع للحب نلقاه بآه
ونُواريه بآه
مقطع نحنى به كلّ الجباه
للتكايا . . والدواوين . . وأيام الطغاه
أيها الشعر تمرّد مرتين
غنّنا شيئاً عن البدء . . وشيئاً عن نهايات الحياه
واحمل الراية . . واحمل معولك . .
نحن في بيت الإله !!!

* * *

سائحٌ أنت تُغاويك زيوفُ الواجهات
ويُغاوى جوعَكَ اليابسَ للجنس الفُتات
تقرأ التاريخ في غمز العيون
وعلى كل وجوه اللافتات .
سائحٌ تجتاب أعطاف المدائن
وتُراهن . .
في المواخير . . وأبهاء الفنادق . .

والمسارح . .
أن هذا العصر عملاق . . وفاتن
انت يا شعر على الأرض مُواطِن
لستَ يا شعر بسائح
فاحمل المجداف . . والريح . . وزيتاً للمصابح
واسأل الأعماق عن كلّ الكنوز . .
وعن الميّت في القاع . .
فقد ضاعت من الوجه الملامح ! !

* * *

رائعٌ يا أيها الصمتُ . . وطاغ . . ومراهقٌ . .
أنت ضرّمت الحرائق
أنت علّقت المشانق
أنت حفّرت على الأرض ملايين الخنادق
أنت ذبّحت نهود الغيد في كل المفارق
أنت مخلوق . . وخالق . .
أيها الصمتُ البطوليّ المراهق
أعطنا خبزاً . . وملحاً . . للطريق
وارفع الرّفض بيارق
نحن نصبّناك ربّاً للقطيع
بارك الماشين في الوحل على وجه الحقائق !!!

* * *

الأخطل الصّغير [1]

شعر: مها غريب

الى الاعوام الثانين التي افرغت كأس الحياة .. الى روح الأخطل الصغير ، أهدي هذه القوافي :

شفة الصّبا ، من أدمع الأرز انهلي
وابكي الهوى يغفو بجفن الأخطلِ
ذبل الشباب اذ المنون بربّه
عبثت يداه ، فغاض ماء الجدولِ
أمصرّف الأقدار ، ماذنبُ الورى
يحيون بين توجُّعٍ وتوسُّل

---

(١) رثت الشاعرة مها غريب ، في قصيدة طويلة ، شاعر الهوى والشباب بشارة الخوري (الاخطل الصغير) . وقد اختارت « المعرفة » لقرائها مقتطفات من هذه المرثية .

أو كلمـا جاد الزمان بكوكب
هتف السراج، وجفَّ زيتُ المشعلِ ؟
غفلى ، نسوق خطى الحياة ، فكلّنا
رهن الرحيل ، وان نكن لم نرحل . .
يا شاعراً عشق الحيـاة ومابهـا
فترشفَ الأقدار رشفـة فيصل
كأسَ الطلّا هصّرتها ، فحطمتها
اذ لم تكن تخشى غـداً ، لو ينجلي
كيف الردى ، يعطيك كأس منونه
فتعبها نشوان دون تأمـل .
فتنتـك من كأس الحمام سلافةٌ
فتّـاكةٌ كالصارم المتبـذّل
فجرعتها والموت طيّ حبابهـا
وتركتنا ، نحسو كؤوس الحنظل .

* * *

يا أنتَ ، ياناي الهوى وغنـاءه
يا واحـةً للظامىء المتعلّـل
فجرّتَ مابين الأضالع أنهـراً
تسقي الحيـاة ، وورودنا إن تذبل
لا تلحين بلاغـتي ان أخفقتْ
سأبيعُ وردك ، يابشارة ! أمهل

* * *

حيّيتكَ من أرواح أرزك نغمةً
قدسيةً مثل الكلام المنزل
يا أعظم الشعراء أنتَ أميرهم
يا كوكباً للشعر لمّا يأفُل . .
طوبى لسكان القبور وقد رست
هذي الشراع ، بمطشهم كالأجدل
ولطالما شربوا الحياة بكأسها
عسلاً يقطر من يراع الاخطل
لبنان ! كيف نعيت أخطلنا الذي
ما ناء كاهله بعمر مُجزل
حسب الثمانين التي في قلبه
نبض الشباب ، وشقشقات البلبل
من بعده ؟ شاد لأرزك مجده
من مبلغ أناته اذ يبتلي ؟
من مطرب سمع الوجود بلحنه
من مسكر الأرواح ؟ لبنانُ اسأل
طاغورك المفتون فيك سَمَتْ به
نحو السماء يد الحمام فمَنْ يلي ؟
من يغزلُ الأمجادَ ، ينسجها رؤى
من يبعثُ الماضي بروح المقبل ؟
من يأربي الالهام ، للصهباء ، للأشذاء ، مَنْ بالشاعر المتغزّل ؟
نام ، الذي عشق الحياةَ مُصيدةً
وَحَسا مناهلها التي لم تُنهل . .

نام الذي ضرب الروائع في الهوى
من مثل «سلمى» في الوفاء الأمثل
أو مثل «عروة» والمنيّةُ كأسه
من بعد «عفراء» ابنة العمّ الخلي
نام الذي كالأرز من لبانـا
خلداً ، ومجـداً ، وارتفاعة منزل
نام الأمـير بشارة الخوري فما
أغنى الضريح ! بكـنزه المتزمّل
نامَ الذي زرع الحيـاة أمانيـاً
ومَضى الذي ، أغنى صحارى الجهّلِ
ليتَ الحياةَ تثيبُ من يهفو لهـا
إنّ الحيـاة قصيدة لم تكمل . .

هذا الرجل راية

بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على مقتل يوليوس فوتشيك

الكاتب السوفييتي بوريس بوليفوي

ترجمة وصفي البني

منذ خمسة وعشرين عاماً ، وفي سجن بلوتزنس القديم ببرلين ، طوق الجلاد النازي بحبل المشنقة عنق شيوعي تشيكي ، عنق رجل كان ما يزال في عنفوان شبابه . وقد كرم جميع التقدميين في العالم الذكرى السنوية الخامسة والعشرين للميتة البطولية التي انتهت بها حياة واحد من خيرة أبناء الأرض ، شيوعي تشيكوسلوفاكيا العظيم يوليوس فوتشيك .

كلا ، « الميتة » ليست هي الكلمة . انها لتدنيس لقدسية هذا الانسان الرائع ، هذا الواحد من الرجال الذين بفضلهم تشعر الانسانية انها اسمى واكثر شباباً واشد ثقة بنفسها . ان الجلاد النازي قد انجز فعلته النكراء . ولكن يوليوس فوتشيك دخل دنيا الخلود بعد ان فني جسده . فنحن اليوم ، بعد خمسة وعشرين عاماً على وفاته ، ما نزال نحس انه معاصر لنا . حيا بين الاحياء ، شيوعياً بين الشيوعيين ، مجاهداً بين المجاهدين .

منذ وقت بات بعيداً ، عقب الحرب العالمية الثانية بقليل ، قدم لنا اصدقاء من « رودي برافو » ، وكنا يومذاك اول وفد صحفي سوفييتي جاء الى تشيكوسلوفاكيا ، هدية ثمينة ، هي اوراق كتاب لم يكن قد صدر بعد ، واما الآن فهو واسع الشهرة : « تحت اعواد المشنقة » . وفي الوقت نفسه قدمت لي غوستا ، ارملة فوتشيك ، صورة التقطت له اثناء رحلته الى الاتحاد السوفييتي ، قبل الحرب . فوتشيك ، في هذه الصورة ، تغمره الشمس ، على وجهه ابتسامة عريضة تكاد تجعله وجه فتى . وعيناه المتغضنتان تشعان بالبهجة ، ومن خلالها يشعر المرء ان روحه الصافية المجنحة والمفعمة بالرجولة تتطلع الى الدنيا . هكذا كان فوتشيك حتى آخر يوم من حياته . وهكذا عرفه اصدقاؤه . وهكذا سيبقى في ذاكرة الشعوب . صلباً لا تلين له قناة ، متفائلاً ، مفعماً بالايمان بانتصار الشيوعية ، وبانتصار افضل ما على الأرض .

كان فوتشيك يحب الناس حباً جماً ، حباً ينطوي على نزعة انسانية حقة . كان يحب الحياة ، وقد قاده ايمانه بمستقبل البشرية ، وهو بعد فتى ، الى صفوف الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي المجيد .

وقد كتب في « رودي برافو » : نحن الشيوعيين نحب الحياة ، ولذلك

لا تتردد حين تبتغي التضحية بالحياة الخاصة من اجل شق الطريق وتمهيدها نحو حياة حقيقية ، حرة ، غنية ، مشعة ، حياة جديرة بهذا الاسم » . وكان كل ما فعله فوتشيك في الأعوام الاربعين التي تألفت منهـا حياته الطافحة بالمعارك والمكرمة يوماً فيوماً لخدمة شعبه تأكيداً لقوله هذا .

ولد يوليوس فوتشيك في ٢٣ شباط ١٩٠٣ بضاحية براغ العمالية «سميهوف» . وكان ابوه يعمل في الخراطة . وما كان كاريل فوتشيك الشيخ قادراً على ان يوفر لابنه دراسة ما . ولكن يوليوس ورث من ابيه تركة اثمن كثيراً من الرأسمال . لقد اورث الاب ابنه للشعب ، للكادحين ، والايمان بالعقل المعصوم عن الخطأ وبالمستقبل الوضاء .

كان يوليوس فوتشيك ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، من ألمع كتاب البلاد . انه على الدوام حيث يكون نضال الطبقة العاملة محتدماً ضارياً . وقد كانت كتاباته نشيداً يتغنى ببسالة الطبقة العاملة وصلابتها وحكمتها وفطنتها .

ما كان وحسب كاتباً ملتهب القلم ، بل كان بالاضافة الى هذا مجاهداً نشيطاً ، ومنظماً قادراً على استنهاض العمال وحفزهم الى النضال ضد الرأسمال وضد العاملين في خدمته بارادتهم او بغير ارادتهم ، الاشتراكيين — الديمقراطيين والتوفيقيين ، واهل الكلام الجميل في الاحزاب البرجوازية . وكانت هذه الروح التي لا تعرف الهوادة مصدر قوته .

وتحتل رحلاته الى الاتحاد السوفييتي مكاناً خاصاً وعظيم الأهمية في تاريخ حياته . كان ما يزال في ريعان شبابه حين جاء الى بلد الاشتراكية للمرة الأولى وما كان ذلك قط بالامر اليسير ! فقد كانت شرطة مازاريك تقيم في وجهه كل انواع العقبات . ولكن مع ذلك نجح في اجتياز الحدود سراً ، مجازفاً بفقدان

حريته . وقد اقام طويلاً في موسكو ولينغراد ، وجاب ارجاء اوكرانيا وآسيا الوسطى . وكان وهو المتأجج حماسة ، والممتلىء بفرحة الحياة ، والانساني النزعة يستنشق بنهم – على حد تعبيره – نسيم الاشتراكية في رئتيه . انه في بلد حلمه الاعز . وقد كانت نظرته ، نظرة الماركسي المثقف ، تبصر بدقة وبهجة ما في الحياة السوفييتية الفذة من سمات تولد الجديد . وكان سمعه المرهف يلتقط كل ما هنالك من جديد ومدهش ، وما لا يزال صعباً ان يلاحظه اجنبي قادم من بلد اوروبي غني ، عليه مظاهر السعادة . وان المرء لتأخذه لدى قراءة رسائل الصحفية انها قصائد حقة عن الحياة السوفييتية ، قصائد متفائلة ، ذات اشعاع ، انها اغان متأججة العاطفة عن عظمة الانسان العامل الحر :

في تموز ١٩٣٠ كتب في رسالة الى زوجته غوستا من الاتحاد السوفييتي : « ... لم يسبق لي قط ان شعرت بأنني حر قدر شعوري هنا . الامر هنا رائع بديع . وما اراه في الاتحاد السوفييتي يتجاوز أجرأ افتراضاتي » . وفي هـــذه الرسالة الشخصية ، غير المعدة اطلاقاً للجمهور الكبير ، يهتف قائلاً : « ابلغي التحيات للجميع وقولي ان ثمة ما يستحق عناء النضال في سبيل ما رأيت هنا » . وليس ينبغي ان يغيب عن البال ان هـــذه الكلمات قد كتبت سنة ١٩٣٠ ، السنة القاسية جداً في التاريخ السوفييتي . ولذلك فهي تسمح للمرء بان يحس كامل الاحساس بان فوتشيك ، بنظرة النسر التي تميز بها ، كان يرى الى مدى جد بعيد .

« رحلة الى المستقبل السعيد » . ذلك كان عنوان احدى رسائله الصحفية الاولى اثناء هذه الرحلة . وقد كتب بعد ذلك ، وهو يفكر فيما رآه ويقارن بين العالمين : « عالمان . عالم يحول وجهه عن الشمس ، عالم غارق في ليل ازلي ،

عالم ينطفىء ويتفسخ ، وعالم آخر يتطور في فلك مجرات الكون الجديدة . يعرفه النهار والليل ، الضياء والظل . وما هو بمعجزة . انما هو الحياة » .

وحين عاد الى بلده نشر كتابين ، احدهما اثر الآخر ، عن رحلته الى الاتحاد السوفييتي . والعنوان نفسه يفصح عن المحتوى . « في البلد الحبيب » . ذلك هو عنوان احد كتابيه . واما الآخر فعنوانه : « في البلد الذي تحقق فيه المستقبل » .

على انه لم يك ، بين مواطنيه الكتاب التشيك والسلوفاكيين ، مفرداً في حبه المتأجج المخلص للاتحاد السوفييتي . اننا نتذكر باحترام ومحبه اولئك الذين نسميهم اليوم بالكلاسيكيين ، الذين عززوا وضاعفوا ، بمؤلفاتهم الكفاحية في هـــذا العصر المضطرب الذي تهزه الحروب والثورات ، ما للادب التشيكي والسلوفاكي من شهرة بديعة قديمة . اننا نتذكر ياروسلاف غاسيك الشهير الذي لا نظير له ، وايفان اولبراخت ، وبيتر ايلمنسكي ، وماريا مايروفا ، و ت . فيان وفيتيسلاف فيزفال ، وماريا بويانوفا . لقد كانوا جميعاً اصدقاء طيبين وامناء للاتحاد السوفييتي . وبمحبة وحرارة كشفوا جميعاً لقراء الغرب عن بلد الاشتراكية الأول الذي تحقق فيه مستقبلهم .

ومع ذلك فان يوليوس فوتشيك يحتل مكانا خاصاً في هذه المجموعة المجيدة من المشاهير . فقد كان ، بوصفه مار كسياً متنوراً عارفا بقوانين التطور الاجتماعي يحسن الرؤية الى مدى جد بعيد . لقد ناضل ببسالة ضد خيانة مونيخ ، وضد قادة الدولة المتخاذلين الذين اقدموا ، في خوفهم من تلاحم شعبهم ومن الثورة الاشتراكية ، على فتح حدود بلدهم وألقوا به تحت جنازير الدبابات الهتلرية . وفي تلك الساعة الرهيبة من حياة وطنه ، اذ كانت مصفحات هتلر قد اخترقت الحدود

الغربية ، واذ كان هنلاين قد اصبح السيد المطلق في اراضي بوهيميا الغربية ، نشر فوتشيك مقالاً ملتهباً ، زاخراً بالايمان وبالامل ، يقول فيه : « سيأتي الجيش الاحمر لمساعدتنا » . وفيما بعد ، اثناء الاحتلال الهتاري المشؤوم ، اصبح فوتشيك وهو المنظم الممتاز والمجاهد المجرب المتمرس في الكفاح ، محرراً للطبعة السرية لجريدة « رودي برافو » . فلمه المتأجج لا يعرف الكلل . يوجه الى الفاشست الضربة اثر الضربة . واذ ذاك قرر الغستابو ان يلعب ورقته الاخيرة . فكلف عميلاً خاصاً بمراقبة فوتشيك . وتلقى فوتشيك ضربة الخيانة . والقي به في سجن رهيب يحس كل معتقل فيه بانفاس الموت تهب على رأسه .

كان يبدو ان كل شيء قد ضاع . انها النهاية . وما بقي أمام رجل تطبق عليه جدران السجن الاربعة ، محاط برقابة شديدة ، غير ان يلقي السلاح . ولكن فوتشيك لم يكن من هذا النمط من الناس . حتى في السجن كان يتابع النضال على ورق لفافات التبغ ، مستخدماً احرفاً جد دقيقة ، مؤلفاً كتاباً ، هو الأخير في حياته الوضاءة الساطعة ، وثيقة انسانية مذهلة ادخلته عالم الخلود . كان يرسل بمؤلفه الى خارج السجن ، ورقة اثر ورقة ، بواسطة السجان الذي كان تشيكياً . وبالانتظار ، اخفيت هذه الاوراق . وبعــد تحرير تشيكوسلوفاكيا جمعت ونشرت . وهي الآن الكتاب الشهير : « تحت اعواد المشنقة » . وهو اليوم من أكثر الكتب شعبية في العالم . وقد صدرت منه الوف الطبعات بمئات اللغات . انه كتاب مدرسي للشبان الذين يفكرون بحياتهم ، وسلاح للمجاهدين . وليس عبثاً يحمل المحاربون في فيتنام المناضلة هذا الكتاب في عدولهم .

لقد مات يوليوس فوتشيك ميتة الابطال منذ خمسة وعشرين عاماً . وحين مضى الى المشنقة في الثامن من ايلول ١٩٤٣ ، وكان مؤمناً بانتصار القضية التي

ناضل من أجلها . وحين صعد الى المشنقة انشد « الانترناسيونال » وفارق الحياة على نغمات هذا النشيد .

« مات ... » ، كلا ، ليس هذا بصحيح . انه وهو ينشد « الانترناسيونال » الذي يدعو شعبه الى النضال ، قد سقط جندياً في المعركة . واليوم ، في هذه الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لموته جندياً ، في ساعة نذير بالنسبة لوطنه في الوقت الذي يهدد فيه ابناء الذين شنقوا فوتشيك بلاده من جديد ، يهددون مكتسباتها الاشتراكية ويحلمون بسلخ وطنه عن العالم الاشتراكي ، عن عالم اليوم ، والتطويح به الى الوراء ، الى عـالم الماضي الذي كان فوتشيك العظيم يحتقره ويحاربه ، نهب نحن السوفييتين ، ورفاقنا في الأسرة الاشتراكية ، هبة حازمة للدفاع عن افكار يوليوس فوتشيك ضد افكار واعمال اعدائه القدامى ، وخصومه السياسيين .

ان الكلمات الاخيرة في كتاب يوليوس فوتشيك الخالد ، كلماته الاخيرة الموجهة الى الاجيال القادمة ، لها الآن ، في هذه الايام المنذرة ، رنة في النفوس أشد آنية منها في اي وقت مضى .

— ايها الناس ، لقد كنت احبكم ! فكونوا يقظين !

صدر حديثاً..

حكايا النورس المهاجر

مجموعة قصصية

حيدر حيدر

- الانسان في صراعه للارتقاء فوق ذاته
- الانسان في كفاحه اليومي لتثبيت وجوده القومي
- من أروع النتاج العربي المعاصر في القصة: أسلوبًا وعمقًا وأصالة

منشورات وزارة الثقافة - دمشق

السعر ٢٠٠ ق.س

حول مؤتمر نيروبي (١)

ترجمة : دلال حاتم

يعتبر مؤتمر نيروبي الذي انعقد بين ١٦ و ٢٧ تموز ١٩٦٨ لبحث مشاكل التعليم في افريقيا ، من أهم المؤتمرات بعد سابقيه اللذين عقد أحدهما في تاناناريف عام ١٩٦٢ والآخر في أديس أبابا عام ١٩٦١ . وقد ضم هذا المؤتمر الاخير اربعاً وثلاثين دولة من افريقيا الوسطى ، وخمس دول من شمال افريقيا ، وعدداً كبيراً من المراقبين الذين ارسلتهم الاوساط الجامعية والمؤسسات التربوية من انحاء العالم. كانت مهمة المؤتمر دراسة مشاكل التربية والتعليم العلمي والتقني وعلاقتها بتطور افريقيا ، ودور الكوادر الافريقية المختصة في تطور القارة الاقتصادي .

(١) عن مجلة أفريقيا الفتية العدد ٣٩٤ — ١٩٦٨
Jeune Afrique № 394 - 1968

هنالك سؤال يطرح على البحث في هذا المؤتمر: هل نفذت القرارات الخاصة برفع مستوى التعليم والتي اتخذت في مؤتمر اديس أبابا؟ هل النتائج التي توصلت اليها دول افريقيا الآن مرضية؟. يتضح لنا من خلال التقارير التي قدمها خبراء اليونسكو، أن الخطط التي وضعت في المؤتمرات السابقة فيما يخص التعليم الابتدائي والثانوي قد اصابها بعض التأخر.

ويبلغ الفرق بين الأعداد الفعلية والأعداد التي حددت سابقاً حوالي ۱٫۱۰۰٫۰۰۰ طالب في المرحلة الابتدائية. و ۲۷۲٫۰۰۰ طالب في المرحلة الثانوية في دول افريقيا الوسطى البالغ عددها أربعاً وثلاثين دولة. ففي مرحلة التعليم الابتدائي لا يشكل الاطفال الذين هم في المدارس الا نسبة قدرها ٤٤٪ ممن هم في سن التعليم الالزامي، وهذا الوضع سيؤدي الى انعكاسات فعلية على عدد الأميين في المستقبل.

واذا سلمنا بأن الوصول الى السنة الرابعة المدرسية ضروري لمنع الطفل حداً ادنى من التعليم، فاننا نلاحظ استناداً الى الاحصاءات الحالية بأن ۷۱٪ من الاطفال الذين ولدوا في عام ١٩٥٤ سيصنفون في عام ١٩٦٩ ضمن الكبار غير المتعلمين. واذا اعتبرنا السنة الخامسة المدرسية هي الحد الأدنى، فان هذه النسبة سترتفع الى ۷۷٪. وهذا يعني أن المدارس الابتدائية سوف تخسر المعركة التي تخوضها في سبيل محو الامية، لأن تطوير التعليم لا يتناسب مع تزايد السكان.

أما بالنسبة للتعليم الثانوي، فان الوضع افضل قليلاً. فقد ازداد عدد الطلاب خلال السنوات العشر الماضية بنسبة ۱۸۲٪، واذا ادخلنا في حسابنا هذا دول افريقيا الشمالية فان النسبة ترتفع الى ٣٦٤٪. ومع ذلك فان الاحصاءات

تشير الى أن ٨٫٦٪ من الذين هم في سن التعليم يتلقون العلم في المدارس ، بينما حدد مؤتمر أديس ابابا هذه النسبة بـ ١٠٫٤٪

ويلاحظ أن التعليم العالي قد حقق الأرقام التي حـــددت في المؤتمرات السابقة فخلال خمس سنوات ازداد عدد الطلاب من ٢٧٫٢٠٠ طالب الى ٦٨٫٠٠٠ في افريقيا الوسطى ، ومن ١٣٠٫٠٠٠ الى ٢١٢٫٠٠٠ في افريقيا الشمالية . وهذا يعني أن نسبة الطلاب تبلغ حوالي ٥ بالألف في افريقيا الوسطى و ٤٩ بالالف في افريقيا الشمالية .

وهناك تقدم آخر قد تحقق في واقع الطلاب في افريقيا نفسها ، فقـــد ارتفع عدد الطلاب الذين يتلقون العلم في الجامعات المحلية . وتشير الارقام الى أنه من بين ٦٨ الف طالب في افريقيا الوسطى هنالك ٤١ الف يتلقون العلم في جامعات محلية اي مايعادل ٦٠٪ من مجموع الطلاب ، بينما كانت هذه النسبة ٥٠٪ منذ خمس سنوات . أما في افريقيا الشمالية فهنالك ٢٠٠ الف طالب يتلقون العلم في الجامعات المحلية مقابل ١٢ الف يتلقون العلم في الخارج ، ويعود السبب في ذلك الى تنوع الجامعات الافريقية ، وتنوع الفروع التي يقوم الطلاب بالدراسة فيها .

ومها يكن الامر ، فان بعض المواضيع مـا تزال تثير الاهتمام ، ففي اكثر بلدان افريقيا لا يتجاوز عـدد طلاب الجامعة ٥٠٠٠ طالب ، وهو عدد ضئيل جداً ، ولا يرتفع العدد عن هذا الرقم الا في ست دول افريقية منها اربع دول من شمال افريقيا .

كما أنه نسبة انتساب الطلاب الى الفروع العلمية (الطب ، الهندسة ، العلوم الطبيعية ، والزراعة) لا تتجاوز ٤٢٪ في مجموع افريقيا ، وتبلغ ٣٣٪

فقط في جامعات افريقيا الوسطى ؛ علماً بأن مؤتمر تاناناريف طالب بان ترفع هذه النسبة الى ٦٠٪ .

ثم ان عدم وجود الشخصية الافريقية الاختصاصية يؤدي الى تأخر خطير في تطور البلاد الاقتصادي . ففي افريقيا ٢٠٠ عامل فني لكل مليون نسمة (بينما تتراوح هذه النسبة في اوروبا بين ٥٠٠—٢٠٠٠) .

وتشير الاحصاءات الحالية إلى ان عدد الاشخاص الفنيين والعاملين ـ سواء الموجودين في افريقيا أو خارجها ـ لا يكفي للوصول الى الحد الادنى اللازم لتطوير اقتصاديات البلاد الافريقية ، ولكي تملأ الشواغر التي تحدث بسبب ذهاب الموظفين الغرباء يجب مضاعفة الامكانات المحلية وايجاد العمل لها . كما يلاحظ من الاحصاءات أن هناك ثلاث دول افريقية تبلغ نسبة الفنيين فيها بين ٢٧٥ — ٤٠٠ ولكن عدد العاطلين منهم يتراوح بين ١١—٥٧ ٪ .

أما الزراعة ، فانها تحظى باهتمام ضئيل ، ففي ١٢ دولة من دول افريقيا الوسطى يبلغ عدد الزراعيين الفنيين ٤—١٣٪ فقط ، وبما ان اكثر هذه البلاد ذات اقتصاد ريفي ، فانه لا يمكن بالوضع الحالي ، تطوير الحياة الزراعية بأي شكل من الاشكال ، ولا رفع مستوى الحياة فيها .

ان عدم الرغبة في تعلم الزراعة فنياً يتوضح منـــذ المدرسة الابتدائية ، ونتساءل الآن فيما اذا كان التعليم الابتدائي المطبق حالياً ، لا يشجع الطفل على الالتفات الى الريف والحياة فيه ، هذا اذا لم يدفعه الى هجر الحقول الـتي زرعها أهله والزحف نحو المدن ، حيث لن يجد على الأغلب مكاناً له فيها للعمل .

وقد أجري استفتاء بين الطلاب الذين أتموا الدراسة حتى الصف السابـع تضمن نوعين من الاسئلة :

١ - ماهي المهنة التي تجد أنها أكثر فائدة لبلدك ؟
٢ - ماهي المهنة التي تود أن تعمل بها ؟

وقد كانت الأجوبة بالنسبة للسؤال الأول كما يلي :

٢٧٪ مزارعون ، ١٦٪ معلمون ، ١٠٪ وزراء ، ٧٪ نواب ، ٦٪ موظفون في الاعمال الادارية والمكاتب .

أما السؤال الثاني فكانت الاجوبة كالتالي :

٢١٪ موظفون في المكاتب ، ١٨٪ معلمون ، ٨٪ ميكانيكيون ، ٨٪ مزارعون .

وهكذا نرى أن الطلاب يشعرون بحاجة بلادهم إلى الزراعيين الفنيين ، ولكن عندما يعود الأمر الى اختيارهم الشخصي، فانهم يفضلون العمل في المكاتب، وهو العمل الذي يأتي بالدرجة الخامسة بالنسبة لحاجة البلاد الفعلية ، أما الزراعة فلم يطلبها إلا ستة طلاب فقط ، علماً بأن هذا الاستفتاء قد جرى في منطقة ريفية .

ومن بين المواضيع التي طرحت في مؤتمر نيروبي، موضوع اعمار الريف .

وقد طرحت هذه المشكلة عدة مرات في الصحف وكان لها صداها .

ويقوم بعض الاخصائيين في الفولتا العليا وموريتانيا ومدغشكر بتوجيه الطلاب في المدارس الى أهمية الزراعة ولفت أنظارهم إلى العناية بالحدائق المدرسية ، واعطائهم دروساً عملية ونظرية في الزراعة والجمعيات التعاونية . وربما قررت هذه الدروس الى جانب الدروس الكلاسيكية العادية . حتى لا تكون هنالك هوة في التعليم بين القرية والمدينة .

وماذا عن النخبة العامية ؟ ان عدد هذه النخبة ضئيل جداً ، واذا لم تحاول الدول الافريقية جادة أن توجد لنفسها جهازاً كاملاً من هذه الفئة ، فانها ستظل

متأخرة وذلك بسبب جهل الجزء الاكبر من سكانها مبادىء القراءة والكتابة .. ولا بد للحصول على هذه النخبة من رفع مستوى التعليم الابتدائي والثانوي، اذ أن هذه المراحل الثلاث مرتبطة ببعضها .

ويبقى اخيراً ايجاد الظروف التي تدفع هذه النخبة الى وضع امكاناتها في خدمة بلدها لا في خدمة الدول الاخرى. ان هجرة الادمغة ظاهرة خطيرة في آسيا وامريكا اللاتينية وافريقيا ، حيث يهاجر العلماء والباحثون إلى دول أخرى متطورة يأملون أن يجدوا فيها مجالاً أوسع للعمل ، وحظاً اكبر للنجاح .. ولا يخفى أن ضياع هذا الرأسمال البشري خطر جداً بالنسبة لهذه الدول النامية كلها .

وتحاول افريقيا الآن في سبيل ايقاف هذه الهجرة ، ان توجد معاهد للابحاث خاصة بالمتفوقين للدراسة والتخصص في المجالات التالية :

الجيولوجيا ، علم المناخ ، علم المياه ، الطب البشري ، الطب البيطري ، الصناعات الغذائية ، الرياضيات والفيزياء ، علم المحطات .

وستكون مهمة هذه المعاهد ، ترغيب الافريقيين والباحثين بالعودة الى افريقيا ، ومنحهم كافة الامكانات والتسهيلات التي تتناسب مع دراساتهم العليا ، وتهيىء لهم المزيد من الدراسة والبحث .

لورنس والعرب [1]

ـــ وجهة نظر عربية ـــ

تأليف : سليمان موسى

عرض وتحليل : د. توفيق برو

من الكتب القيمة التي تستحق الاهتمام كتـــاب « لورنس والعرب ـ وجهة نظر عربية » من تأليف الاستاذ سليمان موسى ، وقد طرق مؤلفه موضوعاً يهم العرب . فلكم كان القارىء العربي مشوقاً الى معرفة الحكم الصحيح عن لورنس ، ذلك الضابط الانكليزي الذي جاء لمساعدة الثورة العربية الكبرى (١٩١٦) ، وتظاهر بحبه للعرب واخلاصه لقضيتهم ، وتشدق بذلك في كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » الذي احدث ضجة كبرى حينما نشر في اوروبا ، ولكنه في الواقع قد تضمن اضاليل خدعت ولاتزال تخدع الكثيرين من القراء العرب وغير العرب .

(١) Slayman Musa, T. E. Lawrence, An Arab View, Oxford University, London 1966.

لقد عرف العرب وغير العرب لورنس سابقاً على نحو ما عرفه الغربيون من خلال كتابات كتابهم الذين جعلوه صانع الثورة العربية وقائدها الفعلي في انتصاراتها وتقدمها حتى دخول جحافلها مدينة دمشق ، واطلقوا عليه لقب ملك العرب غير المتوج او لورنس العرب وما يشبه ذلك من الاوصاف .

واعتقد كثير من العرب بأنه صديق لهم اذ ساعد ثورتهم بوصفه ضابط اتصال بين الانكليز والأمير فيصل قائد جيش التحرير الذي اتخذه مستشاراً له ومحضه ثقته . وقليل من العرب من كان يشك في اخلاص هذا الضابط لقضيتهم ويعرف ميله الى القضية الصهيونية ، حتى اذا طلع علينا المؤلف بكتابه هـــذا كشف لنا حقيقة لورنس ودوره الماكر الذي لعبه في القضيـة العربية وكذبه ودجله على قراء كتابه .

وقد وفق المؤلف في استقصاء الحقائق وبذل كثيراً من الجد والاخلاص المحققة في بحثه . وكان جل اعتماده في دحض اكاذيب لورنس (سواء منها التي وردت في كتابه او في تقاريره الدورية التي كان يرسلها الى رؤسائه اثناء الثورة)، واثبات انتحاله انتصارات الثورة العربية ليبرز في نظر هؤلاء الرؤساء ويحرز ثقتهم وينال الجوائز والترقيات ، بينما لم يكن في الواقع سوى ضابط كبقية الضباط الانكليز الذين رافقوا الثورة ، انما عرف كيف يظهر نفسه ويعلي من قدره ، أقول كان جل اعتماد المؤلف على المصادر العربية من مذكرات رجـــال الثورة البارزين او من احاديث الباقين منهم على قيد الحياة . كما اطلع على مؤلفات الغربيين عن لورنس ودرس كتب لورنس نفسه وحللها ولمس مافيها من تنـاقض يظهر كذبه ودجله ، بينما نرى ان الكتاب الغربيين قد أخذوا كتابات لورنس على

علانها ـ الا واحداً منهم ـ (١) فرفعوه فوق السحاب ونشروا بين الأنام سيرته التي، أصبحت كالاسطورة في الثورة العربية .

وصف المؤلف ماضي لورنس ونشأته وذكاءه وحبه للمغامرات وجلده ونشاطه ومعرفته كيف يستغل الظروف للظهور وكيف يتلاءم مع التقاليد العربية ويستقطب حب العرب وثقتهم به ويتغلغل في اوساطهم . ويبيّن طباعه وتجشمه المصاعب ومحاولاته لاجتذاب العربان نحو حب الانكليز ، ولم يكن في ذلك سوى خادم وفيّ لأمته .

ثم انبرى الى دحض فكرة حبه للعرب ـ ولورنس هو القائل في كتابه : « لقد جازفت بخديعة العرب لاعتقادي ان مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا قليل الثمن في الشرق ، ولاعتقادي ان كسبنا للحرب مع الحنث بوعودنا افضل من عدم الانتصار » ـ واورد الشواهد الصحيحة بأن لورنس قد كرس جهوده لخدمة دولته سواء في علاقاته مع العرب او مع الصهاينة ، وان يكن قد مضى في انجاح المخطط الصهيوني الى ابعد مايستطيع ، لأن المصلحة الصهيونية والمصلحة الاستعمارية الانكليزية كانتا متفقتين اتفاقاً تاماً . وقد عمل لورنس سواء اثناء الثورة او بعد الحرب العالمية الاولى لتحقيق مصلحة دولته ، اذ اسهم في تسوية مابعد الحرب بالنسبة لدول الشرق العربي ، وتوطيد اقدام الصهيونية في فلسطين العربية . اثناء المؤتمر الذي عقده تشرشل في القاهرة لتوزيع التيجان وفقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو ولقرارات مؤتمر سان ريمو . كما أورد المؤلف الشواهد المنطقية على أن ماأشيع عن لورنس ـ من انه قد رمى بعد انتهاء الحرب ، اوسمته في وجه القيادة

---

(١) هو الكاتب الانكليزي ريتشارد الدنجتون في كتابه « لورنس الدجال »
R. Aldington : Lawrence l' imposteur

الحليفة التي منحتها ، وذلك احتجاجاً على نكول الحلفاء عن تحقيق وعودهم باستقلال العرب - لم يكن الا وهماً باطلا .

في الحقيقة لا تستطيع صفحات قليلة ، كالتي اكتبها ، اعطاء هذا الكتاب حقه من التقييم . ويكفي أن أقول انه خلال تحليله سيرة لورنس قـــد أرخ لحوادث الثورة العربية العسكرية تأريخاً لم يسبقه اليه كاتب من قبل في الاجادة والتفصيل ، فقد بيّن دور القادة العسكريين من مختلف الاقطار العربية في الجهد الحربي ، ووصف شجاعتهم في شتى المعارك . كما بيّن مدى ماحققته الثورة من منجزات عسكرية ومدى ماوفرته من جهود للحلفاء . واوضح ان الثورة العربية كانت عربية صرف ، وان العرب هم الذين وجهوها وقادوها الى النصر ، ولم يكن للضابط لورنس أي فضل في ذلك .

ومما أوضحه المؤلف مكر بريطانيا في استغلال الثورة دون ان تقوم بالتزاماتها كاملة نحوهـــا خوفاً من ان يشتد ساعدها فتصبح خطراً على مصالحها الامبريالية في المستقبل ، فلم تزودها الا بالاسلحة التي كانت الجيوش الانكليزية ترفضها باعتبارها غير صالحة للاستعمال بسبب قدمها ، وكيـــف كانت انكلترا وفرنسا تضعان العراقيل في طريق النهضة العربية .

خلاصة القول وضعنا المؤلف - بأسلوبه الشيق الجذاب - في جو الثورة وكأننا نعيشها ، وبيّن لنا انطلاقة الشعور العربي العام الذي تجاوب تجاوباً تحياً مع اهداف الثورة القومية العربية التي كانت في الواقع تدور في جو أمة عربية واحدة مبرأة من الاقليمية والطائفية .

على ان الكتاب لا يخلو من بعض المآخذ التي لا تقلل من قيمته ومنها مثلا : ان المؤلف اورد ان سخط القيادة الانكليزية العامة على لورنس كونه

لم يخف هواه وتحيزه للثورة العربية . وفي رأيي ان لورنس كان يتظاهر بذلك باعتباره ينتمي الى فريق السياسيين الانكليز الذين يمثلون المدرسة الانكليزية المصرية (المكتب العربي في القاهرة) والذين كانوا يريدون استغلال الثورة لفرض النفوذ الانكليزي على بلاد العرب لقاء وعود غامضة بالاستقلال ، بينما كان فريق العسكريين (مدرسة العراق الانكليزية) يهدف الى غايات استعمارية صرفة بحيث يحتل الانكليز بلاد العرب دون مساعدة العرب، ودون ان يعدوهم بأي نوع من الاستقلال .

ومثل ذلك ما اورده عن الجنرال موراي (سلف الجنرال اللنبي) بانه لم يكن لا هو ولا زمرة العسكريين الانكليز فاهمين لحقيقة الثورة العربية وامكانياتها . والملاحظ ان المؤلف قد استنتج ذلك من قول لورنس في كتابه سابق الذكر ، بينما لم يقل لورنس هذا القول الا تمويها للحقائق ، وليبرز نفسه بانه الوحيد الذي كان يميل الى الثورة ويفهمها ويثق بامكانياتها . والأغلب ان لورنس قد افصح عن نصف الحقيقة وكتم نصفها الآخر الذي يفضح نوايا فريق من مواطنيه نحو القضية العربية .

وفي ص ٢٨ ذكر مسألة التحاق الضباط العرب بالثورة وقرنها بقوله « أن تسعى لحرية الوطن شيء، وان تخون الشرف العسكري شيء آخر ، وان من دواعي الفخار للعرب انهم لم يغدروا بالترك سواء في ذلك ضباطهم وقادتهم الكبار والصغار » . ولكن ألم يلتحق كثير من الضباط والعسكريين العرب بالثورة ، سواء في اولها أو بعد ترعرعها ؟ فهل خان هؤلاء الشرف العسكري ؟ ألا يبرر سلوكهم كونهم قد بروا بأمتهم ولبوا نداء الوطنية النابع من ضمائرهم

الحرة النقية ؟ وهل من الافضل ان يخلصوا المضطهديهم تلبية للشرف العسكري ويحاربوا ابناء قومهم ؟

وفي ص ٣٨ ذكر ان عزيز المصري غادر الحجاز عائـداً الى مصر إثر خلافه مع الشريف حسين . لكن الواقع ان خلاف عزيز مع الشريف ومغادرته كانت نتيجة مؤامرة دبرها الانكليز للتخلص من هذا الضابط الذي كان يطمح في ان يكون للثورة جيش قوي منظم قادر على تحرير الوطن تحريراً ذاتياً غير معتمد على الانكليز الا في تقديم الاسلحة ، وفي ان يفوت على الانكليز مخططهم في حصر الثورة وجعلها مقتصرة على مشاغلة الترك فقط . وقــد ذكر ان أحد الضباط العرب وشى بعزيز لكنه لم يسمه والواقع ان هذا الضابط ليس الا نوري السعيد بذاته .

في ص ١٦٣ ذكر ان الملك عبد الله قد اورد في مذكراته ان الحرية قد اطلقت للورنس في جيش الملك فيصل فأصبح وبما يبذل من مال وما قال من اقوال ملك العرب غير المتوج وانه صاحب الثورة وانه لولاه لما نال العرب أي شيء . لكنه لم يناقش هذا القول الذي يناقض الخط العام الذي اثبتته تحقيقاته عن دور لورنس في الثورة ، هذا الدور الذي برهن انه قد صُوّر مضخماً ومبالغاً فيه . والواقع ان قول الملك عبد الله فيه تصوير غير واقعي لدور لورنس ، وربما يكون الملك قد وقع تحت أوهام جو ما بعد الحرب ، ذلك الجو الذي انعقدت فيه الهالة السحرية حول شخصية لورنس ، او ربما كانت هناك دواع اخرى لهذا القول .

المعقول واللامعقول في

خمارة القط الأسود

نجيب محفوظ

عرض ونقد وتحليل: م. رياض عصمت

« العبث ليس العالم وليس أنا ، وإنما هو العلاقة التي تربط العالم بي ، وهي علاقة مقابلة : معارضة وعيي بالجدران التي تحيط به . وإنما يبرز العبث من صدمة وعيي الذي يكتشف عدمية رغباته . »[1] هكذا يرى ألبير كامو مفهوم العبث ، ومن هنا ينطلق نجيب محفوظ الروائي العربي الكبير في آخر كتبه « خمارة القط الأسود » .

(١) روبير دولوبيه . كامو والتمرد . دار الآداب . ص ١٥ – ١٦

حمارة القط الأسود ١٩٦٨ مجموعة قصص قصيرة تضم تسع عشرة قصة تتميز بجدة مضامينها وأشكالها . فهنا ليست « الواقعية » المنطلق الرئيسي ، إنها ليست أكثر من ستارة شفافة تحيط بالمضمون الميتافيزيقي في عديد من القصص ، ضامة إياه في حضنها بتشكيل متلاحم رائع . وهنا لاتأخذ الميتافيزيقا طابعها التقليدي ، فهي هنا « أسطورة الواقع » أو « واقع الأسطورة » . ومن أول قصص الكتاب يشعر المرء بالروح الجديدة تفوح من بين الثنايا ، حيث تتحول الغرابة إلى واقع ، ويكتشف القارىء النكهة الشعبية الخالصة التي تحمل روح البدائية ، وتطرح آلاف الأسئلة المصيرية بدون جواب . وهنا أكثر من أي وقت مضى ، تعود فكرة القدر المنول كصخرة جبارة عشواء تهدد مصير الإنسان في كل لحظة ... وبدون مغزى . وفكرة القدر ، كما هو معروف ، عنصر أساسي من عناصر المرحلة الاولى في القصة عند محفوظ . والواقع أن قصة كلمة غير مفهومة ، أولى قصص الكتاب ليست إلا تصغيراً حديثاً شعبياً لرواية عبث الأقدار . لكن حتى في إطار المرحلة الأولى من أدب محفوظ ، كان القدر والمصادفة في تحركاتها تعبيراً عن قدرية شاملة ، كما يرى الأستاذ محمود أمين العالم وعدد آخر من نقاد محفوظ . فاذا كان هذا صحيحاً مع محفوظ الـ ١٩٣٩ ، فكيف بنا بمحفوظ الـ ١٩٦٨ ؟ ماهي حصيلة فلسفة القدر بينها ؟؟

لاشك أن عمق محفوظ وفلسفته قد تطورا بعد تلك الرحلة الطويلة والغنية جداً في ميدان القصة ، متنقلا بين ثنائيات الواقع والفلسفة ، الفرد والتاريخ . هذا هو المعنى في المجنونة وفي كلمة غير مفهومة والصدف والخلاء وعديد من قصص الكتاب الأخرى .. آه .. مابال جميع الكائنات تختفي ولا يبقى إلا الغبار . في قصة الخلاء يقف الموت كحد قاس لايمكن تجاوزه ولا رده

خمل عشرين سنة بنيل الثأر بذوب في لحظة لأن الموت قد سبق الانتقام بزمن . بل إن الثـأر نفسه والقسوة نفسها ، كانا بمجردوهم سخيف . « مات ولا جدوى من نبش القبور ، ما أفظع الفراغ . » ولا يبقى لبطل القصة الحاقد سوى الاستسلام ، سوى الانطلاق إلى الصحراء . . إلى الخلاء .

والزمن عند محفوظ معادل موضوعي للموت ، فهو حدٌّ آخر يستحيل تجاوزه . وفي ذات اللحظة التي نتطلع فيها للغد ، يرفض كياننا هذا الغد لأنه اقتراب من الصفر . وعلى رأي كامو أيضاً : « إن الزمن ليس بعدُ الوسط الصالح لمشاريعنا ، لطامحنا ، لنمو كينونتنا . فان التفاخر بالشباب مثلاً يوحي بالسخرية ، لأنه في الوقت نفسه رسم الخط المنحني الذي ينتهي بالموت . »[1] وحسب تعبير كتاب العبث اليوم « إذا كان المطلق بلا معنى فالجزء بلا معنى أيضاً . » وهكذا إذا كان الموت بلا معنى فتقدم الزمن بلا معنى أيضاً . إنها كلٌّ واحدٌ لا يتجزأ . الزمن انتهاء للماضي واقتراب من النهاية ، وحد للإرادة لا يعزم . إنه إذن موت ، وهو كالموت لا يرحم . إنه يربط الماضي بالحاضر ويجعلنا مسئوليته كعبء الخطيئة الأزلية . وهو يفاجئنا في ذات الوقت بالتغير فنضيع . لكن . . . هل الموت فراغ خال من المعنى حقاً ؟ وهل هذا ما يريد محفوظ قوله بالفعل ؟

في جنة الأطفال نجد طفلة وأباها . إنهـا تطرح عليه أسئلة الطفولة بسذاجة ، ولكن هذه السذاجة نفسها هي العمق والفكر ، لأن الأسئلة التي يتجاهلها أو يتناساها الكبار ، تلك الأسئلة الفطرية التي يعتقدون أنها بديهات ، هي

(١) روبير دولوييه ، كامو والتمرد ، ص ١١

الفلسفة بذاتها ، وهي أول الأشياء التي تحتاج لأجوبة ، ويجيب الأب وهو محرج عندما تكبر ستقتنع ! حسناً . لكن هل هو نفسه مقتنع ؟ يا للحيرة ! ولنر كيف يجري الحوار الرائع ببساطته :

« قال هو : نموت إذا أراد الله لنا الموت .

– ولم يريد الله أن نموت ؟

– هو حرٌ يفعل مايشاء .

– والموت حلو ؟

– كلا ياعزيزتي ...

– ولم يريد الله شيئاً غير حلو ؟

– أخطأت ياحبيبتي ... »

إنه ليس أول خطأ في المغالطة التي نشعر بها في أجوبة الأب الجدلية .

وعندما نموت نذهب إلى الله ونراه ، هكذا تجيب الطفلة

– وهل هذا حلو ؟

– طبعاً .

– إذن يجب أن نذهب ؟

– ولكننا لم نفعل أشياء جميلة بعد .

– وجدي فعل ؟

– نعم ...

– ماذا فعل ؟

– بنى بيتاً وزرع حديقة ...

– وتوتو ابن خالي ماذا فعل ؟

وتجهم وجهه لحظة ، واسترق إلى الأم نظرة شفقة ، ثم قال :

- هو أيضاً بنى بيتاً صغيراً قبل أن يذهب ..

- لكن لولو جارنا يضربني ولا يفعل شيئاً جميلاً .

- ولد شقي .

- ولكنه لن يموت !

- إلا إذا أراد الله ...

- رغم أنه لايفعل أشياء جميلة ؟

- الكل يموت ، فمن يفعل أشياء جميلة يذهب إلى الله ومن يفعل أشياء قبيحة يذهب إلى النار ...

وتنهدت ثم صمتت ، فشعر بمدى ماحل به من إرهاق . ولم يدر كم أصاب ولا كم أخطأ . وحرك تيار الأسئلة علامات استفهام راسبة في أعماقه . ولكن الصغيرة مالبثت أن هتفت : « أريد أن أبقى دائماً مع نادية . فنظر إليها مستطلعاً فقالت : - حتى في درس الدين ! » [1] ونادية هي صديقتها المسيحية . ليس المهم هو الغيبيات . المهم هو الناس وعلاقتنا معهم . ماهي الحقائق ؟ وهل هي حقائق حقاً ؟

تنتهي القصة بكثير من التهكم الساخر (irony) وكما يقول يوجين يونيسكو : « يبدو لي العالم في بعض اللحظات خالياً من المعنى ، والحقيقة غير حقيقية » . حقاً إن الأطفال لفلاسفة !!

إن محفوظ ، في أفكاره وليس في نتاجها ، يعالج ذات المشاكل المعاصرة

---

(١) نجيب محفوظ . جنة الأطفال . خمارة القط الأسود . دار مصر . ١٩٦٨ . ص ص ٩٢ — ٩٥

التي تؤرق بال كتاب كجان جينيه وصموبل بيكيت ويوجين يونيسكو ، أفكار عن عزلة الإنسان ، عن الفراغ والوحدة ، وصعوبة التفاهم مع الآخرين ، والتموضع في قوالب ، وضياع الشخصية الذاتية ، والرعب إزاء الموت ، ذلك المصير الحتمي المستبد .

ومحفوظ في هذا المجال فيلسوف وناقد يعالج اللاشيء الذي يحيط بنا من اجل « الشيء » ، من اجل الاصلاح ، من اجل منح المعنى والتبرير لكل الوجود . القدر هنا اذن له ابعاد واسعة . القدر هو الزمن ، والماضي هو الحلم الذي يمد اصابع وجوده السوداء على الحاضر والمستقبل . هناك حقاً خلاء واسع يبلع وجود الانسان في ضبابيته ، ومن خلال هذه التجربة الأليمة يجب على الانسان أن يشق لنفسه خيطاً من نور الامـــل عن طريق العمل . الزمن يلتهم السنين ، وما ارادتنا سوى حلم ، وما أصواتنا التي تردد سوى صدى . وقصة المجنونة هي ابلغ تعبير عن وعي شامل يعبث العلاقة الكونية ، بلا معقولية الوجود الانساني .

المجنونة حكاية معركة دامية فظيعة غامضة تقع في حي شعبي ويقتـــل كافة المشتركين فيها . ويتساءل الرأي العام والبوليس عن أسبابهـــا وتجري التحقيقات . والقصة تطرح عديداً جـــداً من الاسئلة وتحكي حكاية المعركة الرهيبة سردياً .

ومن خلال هذا البحث نتساءل كلنا : ما الحقيقة ؟ وهـــل للموت معنى حقيقي ؟ ! ما هو المغزى ياترى ؟ ! ونكتشف اخيراً أن الضحايا كلهم قد ماتوا بلا معنى ، فالمعركة أصلاً وقعت نتيجة لخطأ وسوء تفاهم . لم يكن هناك أدنى سبب للموت ، ليست هناك حقيقة غير سطوته الاعتباطية العابثة ... الفراغ المذهل الذي يملأ العالم .

« – ياله من خيال صادق !

– واذن هلكت الحارة لغباء غلام !

– أو غباء رجل وهو الارجح !

– بل هو غباء الحارة وهو الأصدق ! »[1]

ان نجيب محفوظ يشير باصبع الادانة الى الجهـــل والبدائية اللذين يسودان مجتمعنا الشعبي نتيجة التخلف والاستعمار ! ومن الناحية الاخرى ينطلق من الصورة الى الرمز الفلسفي الشامل حول معنى الموت ومغزاه ، ومن ثم معنى الوجود ومبتغاه .

أما **الصدى** – وهي واحدة من افضل القصص العربية المعاصرة في رأيي – فهي تتعرض لقضية الزمن .. الموت الآخر في نظري .. موت إمكانية الانسان في العودة .. في تقرير إرادته ، وفي تغيير ذنب الماضي ومحو الشعور بذلك الذنب . وللقصة معناها الرمزي الذي سأتعرض له لاحقاً .

الصدى قصة عبد الرحيم الذي يعود الى بيته بعد عشرين سنة من الهجران . لقد اقتتل في الماضي مع إخوته واقاربه ، حيث لعب الغيظ والاطماع والحقد ، فهجر بيت الاسرة وامه لعشرين سنة . وها هو الابن الضال يعود شيخاً ويرى امه عجوزاً ، رسم الدهر على تجاعيد وجهها آثاره ، فيكلمها ويكلمها عن الماضي والحاضر ، ويرغبها بالحديث عن حلم رآه فعاد ، فلا تجيب الام العجوز الصامتة ولا تهتم . يستغفرها ، يستفزها ، يرجوها ، يثور عليها ، يتوسل اليها ، يهينها ، يناجيها بدون جدوى ، فوجه العجوز قاس كالصخر .. كالصمت ، والقشرة التي حسبها ستنهار مع اول رجاء ودمعتين رآها حديداً مصبوباً . انها تجلس في هدوء

(١) المجنونة ص ١٥٣ .

مفزع وقسوة لاترحم . يثور به الانفعال بعد ان استهلك كافة الوسائل ليخرجها عن صمتها ، فيقبض على راحتها ، فاذا بها تصرخ فزعة . وتأتي الخادمة لتشرح الحقيقة أمام دهشته وعجزه . فات الزمن ، العجوز عمياء لاترى . فات الزمن ، العجوز طرشاء لاتسمع . لاغفران . لقد فات الاوان . لم يُبق الزمن له من حلم الندم والتوبة واللقاء سوى الفناء وهيكلُ عجوز يهدها الماضي وعجز الحاضر . لم يبق له سوى الفتات والعقم المريع . وها هي كلمات عبد الرحيم تعبر عن مأساته بعمق : «لم يكن الموقف كما تصورت ولكنه في الحقيقة افظع . وانت شريك في الجناية لامفر . جئت تتخفف من اثقالك فضاعفتها اثقالا مضاعفة . وها هي أنفاسها تتردد على يدك ولكنها ابعد من نجم . كالموت غير انه ينضح بالعذاب . وها هو الصمت وها هو السد . وعليك أن تؤول حلمك بنفسك أو سوف يبقى الحلم بلا تأويل .»[1] لاشك بأن قيمة القصة على المستوى النفسي وعلى المستوى الفلسفي أيضاً بارزة ورائعة . لكني أرى القصة على ضوء آخر ايضاً ، فهي قصة قصيرة ترمز لقصة كبيرة . قصة سياسية بحتة . عشرون سنة مضت منذ ان ترك عبد الرحيم الام والبيت : عشرون سنة مضت منذ ان ضاعت فلسطين . لم أُغلق الدرب على عبدالرحيم ؟ لم ضاعت منا فلسطين طيلة الاعوام الماضية؟ عبد الرحيم هو « عبد القادر » أو « عبد الله » أو « عبدٌ للاقدار » . انه ضحية الجهل والتخلف ، وهو مسؤول في ذات الوقت لانه احد اطراف الخلاف العائلي الشرس اللامجدي . وما اضاع وشوه الحق الذي نسعى اليوم جاهدين لاستعادته سوى ان الامـــة العربية الواحدة غرقت في اختلافاتها المذهبية نتيجة التخلف والاستعمار . الابن

(١) الصدى ص ٣٠ .

عبد الرحيم اقتتل عبثاً مع أخوته واعمامه .. اقتتل من أجل التوافه ، وهكذا فعل الجميع قبل ان يصحو الوعي . وعندماعاد الرجل ، عاد ليجد نفسه متأخراً ، وليجد ان امه الارض التي عاد ليحيي فيها الامل والنضارة باتت جرداء عقيمة . لقد نسيها ونسي إعمارها خلال الصراع مع الآخرين . ان القصة كما يمكن ان تفسر دعوة للتآلف العربي (على مستوى التقدمية) من اجل زيادة صلتنا بأرضنا وإعمارها بدل المشاحنات اللاجدية التي وقعت فيها الامة العربية كلها بدون رغبة في التفاهم . إن الصدى توعية رمزية لنا ولمدى ماينتظرنا من واجبات عربية . أما نهايتها المتشائمة فهي نتيجة العشرين سنة من النسيان والاختلافات . والعشرون سنة تتكرر ايضاً في الخلاء . إنها دائماً موجودة في اعماق العقل الباطن عند محفوظ.

الصلة مفقودة في الخلاء على مستوى الرمز ، لكنها قد تكون موجودة على مستوى اللاشعور المتضمن شعوراً عميقاً بالتاريخ والواقع . ولنعد الى قصة الصدى .

ان القصة رغم وضوح شكلها وبساطتها ، عميقة المعنى ، فلسفية المضمون .

انها تقترب كثيراً في مضمونها من كتاب المسرح الحديث ، فهي تبحث من زاوية اخرى « ازمة الايمان التي هي ازمة اللغة في ذات الوقت » حسب رأي أدامون .

ان اللغة على المستوى الفعلي هنا هي العجز عن التفاهم ، والعزلة الأبدية ، وانفصام العلاقة الانسانية . انها تعبير عن صعوبة التعبير — في شكل آخر غير شكل العبث — وهي افكار عالجها ادوارد التي كما عالجها بيكيت ويونيسكو وجينيه .

وقصة **الصدى** من زاوية ثالثة تتعرض لذات تجربة الشعور بالذنب والندم عند هنريك ابسن واوغست ستريندبرج . انها تذكرني بالمسرحيات الخالدة : **روزمرشولم** Rosmersholm ، **البناء الاعظم** The Master Builder ، **عندما نبعث نحن الاموات** When We Dead Awaken لابسن ، **وسوناتا الشبح** Ghost Sonata لستريندبرج . وكما ينتهي هام في **لعبة النهاية أو نهاية اللعبة** — في ترجمة اخرى — وكما يفقد الخطيب الأخرس المتكلم عبثاً امام الكراسي الفارغة القدرة على الاتصال بسبب عزلته من جهة وبسبب عقم اللغة من جهة اخرى في **الكراسي** Chairs ليونسكو ، وكما يتكلم لاكي كلاماً كثيراً غير مفهوم : رمزاً لمدى تعقيد اللغة وابتذالها وعجزها ، وعن مدى تثاقلها من كثرة المعنى الى حد السقوط ، وكما ينتظر (استراجون) و (فلاديمير) (غودوت) بدون جدوى : ولاشيء يحدث ، ما من أحد يجيء . هذا فظيع ، نرى تمزق عبد الرحيم وعجزه أمام حد الزمن .. الموت في الحياة .. والموت الرمزي للعلاقة الانسانية بين الانسان واصله ، بين الانسان والأرض على المستوى السيكولوجي . كل هذا يجري عند محفوظ لا عن طريق اللامعقول هنا ، بل بتعبير واقعي هو استمرار شكلي للمزج بين التقليدية والجدة .. قصة **الصدى** ، كما ذكرت ، واحدة من القصص المعاصرة الجيدة ليس على المستوى العربي بل على المستوى العالمي كما أعتقد .

لكن ! هل العبث عند محفوظ نهاية حقاً ؟ لا . ان العبث لايمكن ان يكون نهاية في حد ذاته عند كاتب اشتراكي يؤمن بارادة التغير عند الانسان ، بل هو لايمكن ان يكون هكذا حتى لذات كتاب العبث المتشائمين . انهم يهدمون حقاً ، لكن على أمل البناء . لكن عندما يقف اولئك عند « اللا » يذهب نجيب محفوظ الى التلميح أو القول بـ « النعم » . ان ابطال محفوظ ينتقلون فجأة

من مرحلة العجز — التي هي مرحلة وعي بمأساوية الوجود الانساني وفراغ الوجود من مبرر — الى التحدي والى التغير ... الى فرض ارادة الحرية المتمردة من خلال حتمية القدر المؤلمة ، من خلال العجز البائس . وكما يقول اندريه مالرو ، يؤمن نجيب محفوظ :

« نعرف اننا لم نولد باختيارنا
ولانموت باختيارنا
ونعرف أننا لم نختر ابوينا
واننا لانستطيع شيئاً إزاء الزمن
وأن بين كل منا
حياة العالم
هوة سحيقة . »

وكأن مالرو يتساءل : ثم ماذا ؟ اني اتحدى . وهو ذات المعنى الذي اطلقه جان بول سارتر وأوضحته سيمون دوبوفوار في بعض القضايا : « مواجهة الوضع البشري . » والواقع أن موقف محفوظ يقف أقرب مايكون الى كامو ، فلنر ماهي انطلاقة كامو الفكرية ، وبهذا نصل الى محفوظ . البير كامو باحث العبث الكبير قد اقتبس نصاً وضعه شعاراً في احدى رسائله الى صديق ألماني : انه يقول فيه : « الانسان فان ، هذا جائز ، ولكننا نريد ان نفنى ونحن نقاوم ، وألا نعطي للعدم ، ان كان ينتظرنا حقاً ، اي مظهر من مظاهر العدالة . »[1] ويشرح الدكتور عبد الغفار مكاوي تمرد كامو فيقول : « بالوعي يقف الانسان أمام العالم وجهاً لوجه ، كأنهما ضدان متقابلان ، ويصبح الانسان كائناً في غير

(١) عبد الغفار مكاوي — ألبير كامي . دار المعارف بمصر . ص ١٠٩

هذا العالم . وكونه في غير هذا العالم يعني انه يعلو عليه . هذا العلو لا سبيل الى فهمه إلا عن طريق التضامن والديالوج ، الذي يقوم التمرد الحق عليهما . »[1]

والحقيقة ان محفوظ يقف اقرب الى كامو وسارتر منه الى يونيسكو وبيكيت ، لكنه يطرح مشاكل تشبه الى حد كبير مشاكل كتاب مسرح العبث الحديث . وها هو يتبنى حتى شكل العبث في قصة **خمارة القط الأسود** ، كما يتبنى التكنيك القصصي الجديد في **حلم** و **صورة** و **الجنونة** . على هذا الأساس يجب فهم تجيب محفوظ في مجموعة قصصه الجديدة والجيدة هذه . ففي قصة المتهم نجد طرحاً واقعياً تماماً لمشكلة تشبه كوابيس كافكا الرمزية المعقدة . القصة تتعرض لبيروقراطية المكاتب الرسمية ، والى جهل جماعات من طبقات الشعب ، مما يدفع بأحرف كلمة « الفوضى » للظهور بأبشع الصور . القصة هي غلطة أتهام شخص بأنه دهس بسيارته راكب دراجة ، بينما القاتل الحقيقي سائق شاحنة لم يشعر بكل ماحدث . ولكن هنا نحن نرى مع البوليس طوق الاتهام يضيق ، ليس على صدره فحسب ، بل على صدرنا . هناك عدد من الفلاحين يشهدون ضده ويهددونه ويدعون عليه : « ربنا بيننا وبينك ياظالم » ، « الله ينتقم منك » ، « الله ينتقم من الفاعل » . لقد هددهم بمسدس خوفاً من اعتدائهم عليه ساعة الحادثة ، وهاهم بجهلهم يركبون رأسهم ويمسكون بحبل مصيره ككابوس مزعج . لقد نقل المصاب الى المستشفى وضابط البوليس لايفعل شيئاً سوى الصمت والانتظار ومطالعة الصحيفة . ومن الضحية ؟ الانسان الفرد هو الضحية ، فمصيره ومصير الانسان الذي دهس امامه متعلق بخيط رفيع ... خيط الأمل الضعيف :

---

(١) عبد الغفار مكاوي . ألبير كامي . ص ١٠٧

«- سيدي، لا أخالك تجهل ما أعانيه من عذاب، هل يمكن ان اعرف متى تأتي النيابة؟

فأجاب من وراء الجريدة في ضجر:

- أتظن ان حادثتك شيء يذكر بالقياس إلى الحوادث؟

كل هذا العذاب شيء لا يذكر. الآمال المهددة بالتلف شيء لا يذكر. العداوة الغامضة الأسباب بينه وبين الفلاحين شيء لا يذكر. والسماء المترامية التي وقع تحتها الحادث، أهي أيضاً شيء لا يذكر؟ وبمرور الوقت ركبه الازهاق وخنقه. ولم يعد يكترث كثيراً للمجازفة.»(١) لا أحد يهتم. وأسئلته القلقة كلها تلاقي الاهمال والعجرفة. ان نظرته الى السماء تنم عن تساؤل خفي: هل هناك عدالة حقاً؟ ومن هو الشاهد على حقه؟ من؟؟ انه لا يكره احداً. انه لم يفعل شيئاً وهاهو يتهم. من المذنب؟ من المسؤول؟ أهم الفلاحون؟ أم ضابط البوليس؟ أم سائق الشاحنة؟ أم هو نفسه؟ المذنب كما يبدو لي هو الجهل من جهة وليس الأفراد، والمذنب هو بيروقراطية مكاتب الحكومة من الجهة الأخرى. ويشعر الرجل المتهم بعفن الروتين.. بلا جدواه.. بالعبث الذي ينخر في شهادة الأغبياء الذين يظنون أنهم يحققون العدالة وهم لم يروا في الواقع شيئاً، فيتمرد:

«- شيء لا يطاق!

ظهر وجه الضابط فوق الجريدة حاملا نظرة انكار فقال بحدة:

- حضرتك تقرأ الجريدة ولا تفعل شيئاً!

- انت تقول ذلك!

---

(١) نجيب محفوظ - المتهم. خمارة القط الاسود. ص ٦٩

ـ كما سمعت ..
ـ ألا تخاف ..
ـ لا أخاف شيئاً ..
ـ ان كنت فقدت أعصابك فعندي لكل داء دواء !
ـ وأنا عندي لكل داء دواء ..
وقف الضابط وهو يقول بغضب :
ـ أنت ؟!
ـ أنت تؤخر حضور النيابة ، أنت تمنع القانون ..
ـ سأضعك في السجن .
ـ أهو أفظع من هذه الفوضى ؟
ورن الهاتف ويجيب الضابط .
وأعاد السماعة وهو ينظر الى علي بشماتة وحقد وبداري في ذات الوقت ابتسامة ، ثم قال : مات المصاب متأثراً بجراحه
وجم علي موسى قليلاً . تلقى النظرة الشامتة بغضب جنوني وصاح بصوت نمر نحيف : القانون لم يقل كلمته بعد ، واني لمنتظره ...» (١)

ان كلماته الأخيرة هي الأمل المتسرب كشعاع شمس في جو يلفه الضباب أمل الضعيف المتهم أمام قوة عاتية هي قوة الفوضى الاجتماعية التي هي جزء مستمد من فوضى القدر . ان بطل محفوظ في هذه القصة يستمد من عجزه قوة ، انه يتمرد من أجل والتغيير ، وهذا ما سنراه بمعناه الواضح في قصص أخرى .

أما في قصة **خمارة القط الأسود** ، أخطر قصص الكتاب لما ستثيره من جدل ، فالتمرد ينتقل في رأيي الى التغيير ... الى النتيجة الايجابية المرجوة وراء كل تمرد اصلاً . ومحفوظ بشكل عام ينطلق من معادلة فكرية هامة .

---
(١) نجيب محفوظ . المتهم . ص ص ٧١ — ٧٢ .

تقابل

الوعي (الرغبة في الوضوح والانسجام) ⟷ لاعقلانية العالم

العبث

وعلى رأي كامو مرة اخرى : « فاللاعقلاني والحنين البشري والعبث الذي يتولد من تقابلها : اولئك هم ابطال الدراما الثلاثة . » والى حد ما هذا هو موضوع **حمارة القط الاسود** ، وبالتأكيد هذا هو المحرك الفكري لمجموعة محفوظ القصصية الناجحة . لكن نجيب محفوظ يثير هنا مشكلة اخرى هي مشكلة الشكل . لماذا اختار أديبنا العربي ذلك الشكل الغامض اللامعقول لقصته ؟ لم طابع الاسطورة وهجر الواقعية ؟هل هو ضعف أم قوة ؟ هل استخدمه خشية أم ايماماً بالعمق ؟ هل يحاول محفوظ ان يتبع موضة العصر ؟ أم انه يتطور حقاً وبأصالة باتجاه التيارات الادبية الحديثة ؟ ان اللامعقول في رأيي معقول جداً في الواقع لأنه يهدف الى غرض معين . ليس هناك لاشيء في الادب ، فمجرد التعبير عن اللاشيء هو « شيء » كاف في حد ذاته . وطالما يسعى اللامعقول الى ابراز تناقض او انفعال او فلسفة فهناك معقولية كافية لتبرير وجوده في ذاته هو . ان مايعرض هذا النمط للنقد اللاذع هو عدم التنظيم lack of patteln وضياع الشكل ، لكن هذا هو بالضبط مايميزه كنمط متكامل المضمون والشكل . كيف يعبر الفنان عن اللاعقلانية بعقلانية ؟ كيف يرسم صورة اللامعنى بمعنى ؟ ويتحدث عن اللا انسجام بانسجام ؟ هذا هو تبرير كتاب العبث لأسلوبهم ، وهذه هي وجهة النظر الذين ينتقدون بها عدم الانسجام بين الشكل والمضمون مع من سبقهم من الكتاب الآخرين كجان بول سارتر في **جلسة سرية** و**سجناء الطوتا** و**الغثيان** و**الذباب** وغيرها ، والبير كامو في **كاليجولا** و**الطاعون** و**الغريب** وغيرها وجان

آنوي في بعض مسرحياته السوداء ، بل وحتى بيرنديللو صاحب التأثير الكبير على المسرح الحديث ، خصوصاً في فرنسا ، كما يقترح توماس بيشوب . انهم ، كما يقولون ، يحاولون ملأ الفراغ الذي تركه هؤلاء الكتاب بين ما يقولون وبين الطريقة التي يقولونه بها . ونجيب محفوظ كما ذكرت أكثر من مرة ليس عبثياً تماماً . انه يميل الى المدرسة بنسب متفاوتة ، احياناً عديدة في المضمون وقليلاً جداً في الشكل الفني . وها نحن قد رأينـــا أن ما يسمى باللامعقول يهدف الى الافصاح عن موقف معين ، وهو بهذا يكتسب رغم غموضه وتمزقه ، معقوليته والتزامه على حد سواء . لكن هل هذا حق ام انه تدجيل يستخدم للتبرير ؟ لنر ما هو رأي زعيم نقـــاد اللامعقول النظري آنتونين آرتو : « لقد نادى آرتو كالسيرياليين بأن الفن انما هو تجربة حقيقة تمضي متعدية حدود الفهم الانساني ، تجربة تتجاوز المعرفة الانسانية ، تجربة تحاول الوصول الى الحقيقة الميتافيزيقية أي الى الحقيقة المتعدية الواقع الملموس بالحس . ان الفنان هو على الدوام انسان ملهم يكتشف رؤى جديدة للوجود[1] » . وبذات النظرة يدرك محفوظ هنا عجز الواقعية عن الارتقاع الى مستوى الاسطورة . انه يدرك ايضاً مدى امكانيات الرمز والمبالغة والتكبير . ويقول الدكتور غسان المالح : « إن ابراز عيوب وضع ما عن طريق عرض صورة واقعيـــة لهذا الوضع لايؤدي عادة او بالضرورة الى ادراك المتفرج لعيوب هذه الحالة ، اذ ان الانسان غالباًمالا يدرك ما اعتاد عليه او ما يؤلف جزءاً من واقعه . »[2] هذا ، كما يبدو لي ، هوما اقتنع به محفوظ اخيراً فطور ادبه ، حالياً على مستوى القصة القصيرة ، وربما في المستقبل

---

(١) نادية كامل . آنتونين آرتو . المسرح والسينما عدد ٥٢ . ص ٣٠ .

(٢) في مسرح العبث – مجلة المعرفة – كانون الاول ١٩٦٦ ص ١٠٨ – ١٢٥ .

على مستوى الرواية الطويلة . إن هـــذا صحيح بدون شك لدي ، فهي ذات النقطة التي دفعت بوشت الى ابتداع « التغريب » وهي ماهتم به محفوظ بشكل آخر طبعاً في هذه القصة . لقد أطلت الحديث حول شكل خمارة القط الأسود بدون التعرض لمضمون القصة نفسها . فماذا تحكي ياترى القصة الغامضة المثيرة ؟؟

جبار أصلع غريب يدخل حانة « القط الأسود » حيث يسكر الزبائن ويغنون لاهين مع قط صاحب الحانة الأسود الكبير ، ويتمتم الغريب بكلمات مبتورة دون ارتباط او معنى ، ويشرب مايعجز عن شربه البشر . وعندمايحاول الزبائن مغادرة الحانة يمنعهم ويسد الباب الضيق مهدداً . يحيق بهم الرعب واليأس من سطوة الرجل الجبار . يحاولون .. يتوسلون .. ولا فائدة . فيقررون ان يتناسوه ببساطة ، أن يعودوا الى غنائهم ولهوهم . وفجأة يغيب كل شيء ، فاذا بالموقف قد تغير ، والسكارى ليسوا بسكارى ، بل بشر واعون متسائلون . يشاهدون الغريب خادماً يجمع الصحون فلا يذكرونه . لقد أضحى وديعاً يعمل بصمت ، ينهره الجرسون فلا يجيب بل يحني رأسه ذليلاً .

القصة كما هو واضح رمزية الطابع . وهنا أضطر الى إتباع المنهج التفسيري ، لأن القصة تشبه الحلم اكثر مما تشبه مسرح العبث حيث تلعب الفلسفة السوداء الدور المسيطر ، ويكون الهدف منح جو ضبابي يشعر باللاجدوى والرفض . لهذا لابد لي من محاولة تفسير رموز القصة تبعاً لمنطق الحلم حيث لكل أمر دلالاته « المعقولة جداً » في نظري . من هو الغريب الغامض؟ الشيطان ؟ الله؟ الحكومة؟ الرأسمالية ؟ اسرائيل ؟ من هو ياترى ؟

في القصة عدد من الأشياء الهامة التي ان وصلنا الى فك رموزها وصلنا الى تفسير للغموض الذي يعتريها :

١ — الحارة كوحدة مكانية .
٢ — قط الحارة الأسود وحركاته .
٣ — الغريب الأصلع القوي .
٤ — تغير السكارى الى بشر من نوع آخر جاد .

فما هي حارة القط الأسود ؟

الحارة اسمها « نجمة » ، ولون جـدرانها أزرق فاتح يرشح رطوبة في مواضع شتى . وتبدو الصورة لي واضحة ، فالحارة هي العالم . . او هي عالم ، أما ساكنها فهم البشر . انها في ذات الوقت على كل حال مهرب من واقع العالم . . من الحقيقة — تلك التي تقع خارج الحارة وتمنعهم سلطة الغريب وقوته من الوصول اليها . ووصف الحانة بقضبانها التي تسد النافذة وبمدخلها الضيق الوحيد تجلب الى الذهن مباشرة صورة السجن . . . ذلك السجن الذي اختاره أولئك البشر . . سجن الضعف . . سجن القط الأسود . لكن من هو الشرير الرهيب ؟ من هو الغريب ؟؟

الغريب هو القوة المستبدة التي تسد درب البشر . . تحول بـين وعي الانسان وبين فهم العالم ، بين الانسان وبين الالتزام البناء ، وبمعنى أشمل بين الرغبة في الوضوح وبين اللاعقلانية ذات منطق القوة القـدرية الغاشية . ومحفوظ يؤكد مع كامو ضرورة تجربة العبث ، فهو يعتبرها بصراحة اكبر طريق للتمرد ولتبديل عفن الحياة والسلبية الى البناء والايجابية . حسناً لكن ماهي علاقة القط الأسود بكل هذا ؟ وإلى ماذا يرمز ؟ ان القط الأسود وسيلة القوة المسيطرة . إذن هو الشعور بالعجز والضعف والاستسلام والمداهنـة . والقط الأسود هو المعادل الموضوعي للنـاس . . لكنه في ذات

الوقت جانب آخر مساعد للتعريب . إنه الوجه الآخر للقوة الغاشمة ، فهي الذل والعبودية . والقط ، كما يحللونه بعد وعيهم وإخضاع القوة الإرهابية - التي تتحدى حتى الله : « فليأت الجبل . . وما وراء الجبل » - له حكاية : « كان هذا القط إلهاً على عهد أجدادنا » . « كان في الأصل إلهاً ثم انسخط قطاً » ، « - وذات يوم جلس على باب زنزانة ثم أذاع سر الحكاية . . . - وهدد بالويل » . إن القط الأسود هو حقاً الخيط الموصل للحقيقة . لكن لماذا جعلنا من القط الأسود المعادل الموضوعي لضعف الناس ؟ لماذا جعلناه رمزاً للسلبية والتشاؤم والعجز ؟

لا زلنا نذكر حكايا ابن الرومي وتطيره خاصة من القطط السود ، فالقطط السود في أدب العرب رمز واضح ، وكذلك في أدب العالم . ثم ها نحن نجد القط يتحرك جامعاً فتات الموائد ، منتقلاً بين شخص وآخر والناس في طرب . وها هو قبل رواد الخمارة يأتي ليتمسح بالغريب القوي ، وسرعان ما نراهم يتمسحون به بذات الصورة . وعندما يزجرهم مهدداً ينكمشون وجلين : « اجتاحهم الكدر والنكد فطارت الخمر من رؤوسهم . وحتى القط الأسود استشعر في الجو رائحة معاداة فوثب إلى حافة النافذة الوحيدة ، ثم رقد رافعاً ذراعيه تحت رأسه واغمض عينيه طارحاً ذيله بين القضبان » . (١) أخيراً عندما يتجاهل الناس القوة يتجاهلون في ذات الوقت العجز . فلا ترى قطاً أسود مندساً بينهم . نراهم واعين قد غاب القط الأسود إلا من خلال شفاههم . أسطورة . الشيء الذي نراه الآن هو وعيهم والبحث عن الحقيقة ، والسيد المرعب قد أصبح عبداً ودنيا . لقد غدت السلطة للإنسان . . . للشعب .

---

(١) نجيب محفوظ - خمارة القط الأسود ص ١٦٣ .

اني اعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذه المجردات الفكرية لها تطبيق سياسي ، قصد به محفوظ الإصلاح وأنشأته رغبة أكيدة في إثارة الوعي . إن منطق القوة والإرهاب لا نتيجة له سوى الفشل ، إذا كان الانسان يملك الجرأة لينسى ويتمرد .. ليس عن طريق الغناء والبكاء بل عن طريق الإدراك السليم . . . عن طريق الفكر . ولا بد لي هنا ان اعترض على وسيلة التغير . لم اختار محفوظ اللهو حلاً ؟ هل هو الحل ؟ كان من الممكن استبداله بأي شيء فعال آخر يبرر ويبرز تغيرهم . انها نقطة لا يستهان بها في معرض نقد هذه القصة . لكني اعتقد من ناحية أخرى أن ما قصده محفوظ – ربما شعورياً وربما لا شعورياً – هو القول بالمقاطعة والتجاهل « ولكن من يدري ، لربما كان هذا الإنحطاط واليأس خطوة نحو الجديد . » . . هو إلى حد كبير اتباع مذهب غاندي .

وفي هذه القصة تطرح مشكلة رئيسية من مشاكل أدب العبث هي مشكلة اللغة ، لكن بشكل مختلف قليلاً . « ولكن من يدري ، لربما كان هذا الانحطاط واليأس خطوة نحو الجديد . يقول آداموف : إن هذه اللغة البائسة الفارغـــة التي ينطقُ بها الانسان اليوم قد يكون لها صدى في نفس إنسان وحيد يستيقظ ليكتشف بأنه لا يفهم ، فيفهم » .

والسؤال الذي يجب أن يطرح هو استخدام اسلوب العبث في هذه القصة ! إذا كان كتاب العبث يبررون استخدام نمطهم هذا بانسجامه مــع المضمون ، فما هو مدى انسجام شكل خمارة القط الأسود – التشاؤمي – مـــع مضمونها المتفائل ؟ إن محفوظ يصرح منذ عام ١٩٦٥ فيقول : « أحس أن الواقعية هي

(١) د . غسان المالح – في مسرح العبث . مجلة المعرفة – كانون الأول ١٩٦٦ ص ١١٩ .

الاستجابة الصحيحة . فلو أن أديباً ما كان يعتقد أنه لم يعد في مجتمعه شيء له معنى ، وأن كل شيء ينهار ويتقوض وفقد قيمته .. فمن الواقعية أن يصبح ذلك الأديب عبثياً . ». لكن وجه التناقض لا يزال قائماً لأن محفوظ لم يكن عبثياً ولم يصبح عبثياً نتيجة فلسفته ، وهو يقول في ذات الحوار الهام : « وفي رأيي أن الحقائق كما يرونها ناقصة ، لأن الواحد منهم يرى الميلاد والموت فتصدمه النهاية المفجعة وتصنع مزاجه المتشائم ، دون أن ينظر فيما بين الميلاد والموت — في الحضارة المتقدمة النامية التي أقنعت كثيرين بالاستهانة بفاجعة الموت نفسها والنظر في الحياة النظرة الصحيحة القوية » . (١) ولو ان خمارة القط الأسود انتهت كما انتهت **المجنونة** أو الصدى أو كلمة غير مفهومة ، لكان استخدام العبث منسجماً جداً . لكن محفوظ هنا يتبنى الشكل لمضمون لا عبثي ، لكنه يعتمد فقط الرمزية البحتة . فهل أساء محفوظ فهم العبث واستخدامه ؟؟ لا أعتقد. لأن الذي اعتقده هو استخدام محفوظ لمنطق الحلم في عرض حدث رمزي . ثم من هو الذي وضع قاعدة محددة للامعقول ؟ لم يكن هناك حسب ما أعلم أي ارتباط أو تحديد للمدرسة في إطار ضيق ، إنها اسلوب ادبي كتابي ، ولذلك فما المانع من تبني منطق اللامعقول في عرض الحدث !! لا ارى هناك مانعاً خطيراً. إن محفوظ ينطلق خطوة إلى الأمـــام ، ويتجاوز موقف كتاب العبث . إن الرفض عند العبثيين هو رفض واع وإن الـ« لا » عند كثيرين منهم إفصاح عن الرغبة في الـ« نعم » . بهذا لا يكون العبث مجرد عبث . ومحفوظ يوسع الفكرة وينطلق إلى وضوح في تلك النعم الإيجابية . إن اللامعقول معقول جداً في اصوله الفكرية التجريدية .

---

(١) الهلال - العدد التاسع - ١٩٦٥ ، حوار أجراه الفريد فرج مع نجيب محفوظ ص (٤٦)

هناك قصص اخرى طبعاً في المجموعة ، وهي متنوعة ومختلفة الأهمية . هناك قصة **المسطول والقنبلة** : حكاية حشاش يقبض عليه الانكليز بتهمة تفجير قنبلة في مظاهرة بينما هو مسطول لا يدري شيئاً . يضرب الرجل ويسجن ويهان ويحاكم ثم يبرأ ، وإذا بالمسطول قد استيقظ ليصبح احد المناضلين . يمسك حقاً بالقنبلة بكل ثقة بعد ذلك الانفجار في حياته . إنه حشاش في الماضي ، اما في الحاضر فقد اصبح بطلاً حقاً . إنها قصة تمرد واضح كما يبدو .

وقصة **حلم** تصور التغير الاشتراكي وآثاره العلمية الحتمية على نوعين من الأشخاص : العامل الساذج المؤمن بالغياب وقد غدا واعياً ، والرأسمالي وقد بدأ يصبح « رومانسياً » ، إذا جاز لي استخدام الكلمة هنا ، او بمعنى آخر صوفياً يؤمن بالغياب . إنها قصة عن التحول الاشتراكي . لقد صار الحلم حقيقة . وهناك قصة **صورة** التي تدين المجتمع كله من خلال خمس سنوات من حياة فتاة وجدت مقتولة في الصحراء . إن القاتل ليس فرداً واحداً — بل ربما كان القاتل ارحمهم بها — لأن القاتل هو قسوة المجتمع وكراهيته . هناك اكثر من قصة تثير الاهتمام . هناك **الرجل السعيد** الذي تشعره السعادة المطلقة بانفصام غريب عن الحياة .. انفصام مرضي كما يظهر في آخر القصة . وهناك **زيارة** القائمة على مفهوم الحلم ومدلولاته عند فرويد ، بشكل بارع وحديث .

والواقع ان فكرة الحلم والوهم تترددان بشكل كبير في عديد من قصص المجموعة . إن علم النفس يلعب دوره الكبير بالفعل في ادب محفوظ . ولهذا ارى ان مقالتي هذه لم تف الكتاب حقه . إن قصصاً كـ **زيارة**

وفردوس ورحلة وكلمة غير مفهومة و**الرجل السعيد** بل وحلم و**خمارة القط الأسود** من زاوية غير التي ذكرت لا يمكن ان تفسر بشكل شامل دون الإشارة الى معنى الوهم والحلم كما يراه علماء التحليل النفسي من فرويد واشياعه . إن **خمارة القط الأسود** تنقسم في الواقع الى مجموعات . وكما ذكرت تغطي فكرة الحلم والوهم الفرويدية قطاعاً كبيراً من تلك القصص لتمنحنا الجانب النفسي بالإضافة إلى الجانب الروائي الفكري . ولا شك ان **خمارة القط الأسود** ، كأي مجموعة قصص ، تحوي قصصاً ركيكة واخرى جيدة ، لكن نسبة القصص الجيدة في الكتاب ترتفع إلى حد كبير ، وبشكل مقنع ومرض جداً . إن ملاحظتي على قصص المجموعة جملة هي انخفاض شاعرية محفوظ الأدبية ، إنه مهتم بالمضمون الفلسفي اكثر من تزيين الشكل . بل بتعبير ادق ، اجد ان محفوظ مهتم بالشكل الدرامي اكثر من الشكل الجمالي . على كل حال ، وجود البناء الدرامي المتكامل لا يمنع وجود الجمال الفني . إذن ، فكثير من قصص الكتاب تنقصها الشاعرية التي عودنا عليها محفوظ من قبل في روائعه . لم تعجبني مثلا قصة **شهرزاد** لأنها فارغة ، وقصة **فردوس** لأنها متكررة في الأدب عموماً وادب محفوظ خصوصاً . هناك بعض المثالب الصغيرة في قصص اخرى ، لكن المجموعة تظل بكليتها عملا رائعاً يستحق بكل حق ان يظهر في اللغات الأجنبية كمثال مشرف على تقدم قصتنا العربية الحديثة على مستوى الشكل والمضمون ... وهذه هي في رأيي ميزة عدد من قصص الكتاب الرائعة

● المقاومة الفلسطينية المسلحة : بين الارهاب الثوري وحركة التحرير الوطنية
● عوامل الصدام الستة

عرض وتلخيص : هشام الدجاني

نشرت مجلة الطليعة (١) هذا الشهر مقالاً افتتاحياً لرئيس تحريرها الأستاذ لطفي الخولي تحت عنوان : « المقاومة الفلسطينية المسلحة بين الارهاب الثوري وحركة التحرير الوطنية » . والمقال دراسة موضوعية جريئة في تقويم العمل العمل الفدائي وتحديد موقعه . واذا كان الاستاذ الخولي يتحدث عن « فتح » بالذات فما ذلك الا لأنها أقدم وأكبر المنظمات الفدائية ، والا بوصفها « ممثلة » للعمل الفدائي وحركة المقاومة الفلسطينية .

(١) الطليعة – العدد ٩ – ايلول (سبتمبر) ١٩٦٨ – القاهرة .

كانت حركة « فتح » قد بادرت بممارسة نشاطها منذ عام ١٩٦٥ ، غير أنها لم تكن تمثل آنذاك الا اتجاهاً محدود الحجم والامكانات والفاعلية داخل الشعب الفلسطيني ، والا اتجاهاً معزولاً الى حد بعيد عن حركة الشعوب العربية .

وكانت « فتح » في الأساس تعبر عن فكرية مجموعة من الشباب المثقفين من ابناء الجيل الفلسطيني اللاحق لجيل هزيمة ١٩٤٨ ، كفر بما اسماه « سياسة المزايدات حول القضية الفلسطينية ، ووصاية الحكومات العربية عليها » ، وآمن بطريق الكفاح المسلح طريقاً فلسطينياً وحلاً جذرياً لابديل له ، وذلك على اساس واضح من سيطرة عقيدة الفداء والاستشهاد الديني في سبيل الوطن .

وكانت « فتح » ترى أيضاً انها بسلوكها طريق الكفاح المسلح توصل خيط ما انقطع في حركة الشعب الفلسطيني الذي تنتمي اليه ، حيث يملك الشعب تاريخاً نضالياً تضيئه حركات الثورة والمقاومة المسلحتين ، قام فيها الدين بدور العامل القوي المميز والحافز للنضال على ايدي رجال مثقفين متدينين .

واكتسب الدين عند « فتح » أهمية ذات مدلول خاص كرد فعل مباشر للتعصب الديني الذي تمارسه العنصرية الصهيونية الاستعمارية في فلسطين . بهذا النهج الفكري والعملي ظلت « فتح » تشق طريقها وحيدة في المقاومة المسلحة منذ عام ١٩٥٦ حتى ٥ حزيران ١٩٦٧ .

ومع نهاية الأيام الستة لحرب حزيران تفجر في اعماق الشعوب العربية تناقض حاد بين ما كان متوقعاً من نصر ، وبين ماتحقق من هزيمة مروعة ، بين ما كانت تثق فيه الجماهير من نظم وافكار واساليب نضالية ، وما كشفت عنه الهزيمة من قصور وعيوب في هذه النظم والأفكار والاساليب . وكان العدو يتوقع ان

يتجسد هذا التناقض في حالة من الشلل والتفكك والسلبية تنتهي بسيطرة الاستعمار الجديد على المنطقة وتأمين وتقوية الوجود الاسرائيلي وفرض الاعتراف به .

بيد أن ذلك لم يحدث . وانما حدث ان تحول « الذهول العام » الذي ساد عشية الهزيمة الى « صمود جماعي عام » من خلال حركة جماهيرية تلقائية واسعة النطاق شملت الوطن العربي كله .

وكان « رد الفعل الموضوعي » على النصر العسكري الاسرائيلي وارهابه الدموي الفاشي « ارهاباً عربياً ثورياً » يتمثل في مقاومة شعبية مسلحة .

ولم تعد « فتح » وحيدة كما كانت قبل حزيران ١٩٦٧ وانما راحت تنبثق الى جانبها منظمات متفاوتة الحجم للمقاومة المسلحة داخل الشعب الفلسطيني أهمها « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » .

والجديد قيام عدد من الضباط الشبان في الجيوش العربية ، وخاصة في الجيش الاردني ، بترك مناصبهم الرسمية والتطوع في حركات المقاومة المسلحة جنباً الى جنب مع المئات من شباب فلسطين الذين يدرسون في الجامعات الأوروبية والعربية والذين هجروا مقاعد الدرس والتحقوا بمنظمات المقاومة .

والجديد كذلك هو التغير الذي بدأ يطرأ على البنية الاجتماعية لمنظمات المقاومة بدخول اعداد غفيرة نسبياً من شباب العمال والفلاحين الفلسطينيين ، فضلاً عن المرأة الفلسطينية .

ونتيجة لاحتضان الجماهير العربية في كل مكان لفكرة واسلوب المقاومة المسلحة ، تحولت هذه المقاومة من مجرد فكر مطروح ونضال معزول الى ظاهرة اجتماعية وسياسية نضالية ذات وزن مادي مؤثر وفعال . واصبح بالتالي الانعزال عنها او تجاهلها هو انعزال عن فكر وحركة الجماهير وتجاهل لارادتها .

والسؤال الرئيسي الذي يجب أن

نواجه به هذه الظاهرة للتأكد من سلامتها وموضوعيتها وتطهيرها من طابع المغامرة هو جماع ثلاثة اسئلة فرعية :

- هل هي مشروعة ؟
- هل هي ممكنة ؟
- هل تعطي ثاراً ايجابية .

أما عن المشروعية فلا أعتقد أن ثمة خلافاً يمكن أن ينشب حول شرعية المقاومة المسلحة من شعب احتلت أرضه وشرد أهله . بل إن شرعية المقاومة الفلسطينية المسلحة راحت تكتسب أرضية متزايدة لدى الرأي العام العالمي ، وحتى بين أولئك الذين كانوا يتجاوبون من قبل مع الاتهام الاسرائيلي لها بأنها مجرد عصابات تخريب من الخارج .

وأما عن كونها ممكنة .. فان افراز الواقع لها في حد ذاته دليل حي على ذلك ، يدعمه نموها وزيادة حجمها ، بشريا ونشاطا وامكانات من ناحية ، والاحتضان العربي الشعبي الشامل لها من ناحية اخرى . وقد أثبتت التجربة العملية ان اسلوب بدء المقاومة المسلحة من الارض العربية ثم تسللها الى الداخل أمر ممكن فعلا وقد اصبح واقع حياة كل يوم .

وأما عن الثار الايجابية للمقاومة المسلحة ، فيجب عدم الخلط هنا بين تحقق بعض الثار الايجابية ، وبين مدى اهمية وفاعلية هذه الثار نوعياً ومقارنتها بحجم ماتتكبده من خسائر . ذلك اننا يجب أن نأخذ بالاعتبار عدة امور وفي مقدمتها ماتعانيه حركة المقاومة نفسها من سلبيات ذاتية تسجها في مرحلة الارهاب الثوري ، وما تصطدم به المقاومة من قيود لحركتها في بعض البلدان العربية . بالاضافة الى عمر المقاومة القصير نسبياً — لايتعدى ١٥ شهرا — وتأثير ذلك على نوعية الخبرة المكتسبة .

ورغم هذا نستطيع أن نلمس الآثار الايجابية للمقاومة في النقاط التالية :

- منح « القضية » طابع الحضور

المستمر والساخن، سواء على المحيط المحلي أو الدولي ، مع رفض الاحتواء النصر الاسرائيلي لها .

● زيادة الاعباء على النظام الاسرائيلي سواء من ناحية الأمن ، أو من الناحية الاقتصادية نتيجة لما تضطر الى اتخاذه من اجراءات لمواجهة اعمال المقاومة .

● الاسهام في عملية تعثر الهجرة الجديدة الى اسرائيل ، فضلاً عن الحد من حركة السياحة التي تعتمد عليها اسرائيل بعد القروض والمعونات .

● استرداد الشعوب العربية الثقة التي اهتزت بسبب الهزيمة في قدرتها على الصمود للعدوان والتحرك ضده بمختلف الوسائل .

● التمهيد لولادة جيل عربي ثوري جديد يستطيع مواجهة الاتجاهات العنصرية التوسعية لدى الجيل الصهيوني الجديد — الذي يعرف باسم جيل الصابرا (التين الشوكي بالعبرية) الذي يناط به بناء ما يسمى « باسرائيل الكبرى » .

ان الاحتجاج بأن عمليات المقاومة تعطي اسرائيل مبرراً لتشريد مزيد من العرب من الأراضي المحتلة وفرض مزيد من الاجراءات الارهابية .. هو احتجاج يتجاهل طبيعة اسرائيل العنصرية وارتباطاتها الامبريالية ، ودورها التخريبي في الشرق الاوسط .

ولكن هل معنى ذلك ان المقاومة الفلسطينية قد تحولت بالفعل الى حركة تحرير وطنية ، كما شرعت تؤكد ذلك بعض المنظمات والأقلام العربية؟ الجواب في رأيي هو بالدقة لا :

ويجب أن نصارح انفسنا ونصارح منظمات المقاومة بهذه الحقيقة ، والا اخطأنا في الحسابات وانتهينا الى نتائج لاتستند الى واقع الحياة ، ولا تستطيع قوى منظمات المقاومة تحملها في العمل .

وباختصار يجب ان ننأى بحرص مضاعف عن اسلوب التضخيم او التزييف للحقائق ، وهو اسلوب ثبت انه خدعنا قبل أن يخدع العدو ، ودفعنا ثمنه باهظا .

أن حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة، رغم نموها الذاتي النسبي وتوسع مجالات نشاطها وتصعيد عملياتها مابرحت في حدود « الارهاب الثوري » لمجموعات انتحارية مقاتلة، تعتمد اعتماداً رئيسياً على البطولات الفردية من جانب، وعلى العمل العسكري وحده معزولاً عن العمل السياسي. ويسودها أسلوب القيام بعمليات تكتيكية سريعة تستهدف بث الفزع والرعب في جبهة العدو وسرقة شعور الأمن والاستقرار من مجتمعه.

والارهاب الثوري هو الخطوة الاولى على طريق حركة التحرير الوطنية. ولا بد من خطوات جذرية لتحول الارهاب الثوري الى حركة تحرير. أي من مجرد « رد فعل تاكتيكي » الى « فعل استراتيجي ». وهذه الخطوات تعني تنظيم العمل العسكري في اطار خدمة خطة سياسية محدودة الاهداف.

وبدون هذا التحول تواجه المقاومة المسلحة خطر التحرك بأسلوب « مكانك راوح ».

ويستلزم هذا التحول تغييراً جوهرياً في طبيعة تكوين حركة المقاومة، والتغلب على عقبات تعدد منظمات المقاومة.

ويمكن أن نترجم التغييرات المطلوبة لهذا التحول في الخطوط السبعة التالية:

● بلورة كيان تنظيمي موحد لحركة المقاومة المسلحة يمتص كل الثغرات الفردية.

● ربط حركة المقاومة ربطاً مصيرياً بتيار الثورة العربية باعتبار ان تحرير فلسطين هو جزء من قضية عربية كلية.

● الالتزام ببرنامج سياسي اجتماعي محدد الاهداف، يستطيع ان يجذب من حوله أوسع وحدة وطنية ممكنة للشعب الفلسطيني.

● الانطلاق من افق النظرة العسكرية الضيقة الى افق النظرة السياسية الشاملة، وجعل العمل السياسي قائداً للعمل العسكري.

● الاسهام في بناء جبهة عربية عريضة في كل الوطن العربي لحماية ظهر

حركة التحرير الفلسطينية المسلحة ، ودعمها بامكانات كل الجماهير العربية .

● الارتباط بحركة التحرر الوطني العالمية تعبيراً عن كونها جزءاً لا يتجزأ من مسار الانسانية التقدمي . وبهذا تكتسب وزناً عالمياً وتأثيراً متزايداً إزاء وزن وتأثير العدو .

● حركة التحرير الفلسطينية المسلحة مطالبة على وجه خاص بأن تقدم اجابة واضحة على تساؤلات الرأي العام العالمي عامة ، واليهود غير الصهاينة خاصة ، حول تصورها للموقف ، ومصير سكان اسرائيل الحاليين بعد انتصارها .

وبعد .. خلال الخمسة عشر شهراً الماضية ولدت وتأكدت حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة من خلال حركة الصمود الجماهيرية العربية . واليوم ندعو ونلح على أن تبادر منظمات المقاومة الى تطوير نفسها بنفسها الى حركة تحرير وطنية .. فهذا وحده هو طريق الأمل والنصر .

* * *

وفي مجلة « الكاتب »[1] كتب الدكتور رؤوف نظمي مقالاً موجزاً أكد فيه حتمية الجولة القادمة بين العرب واسرائيل . وهذه الحتمية نابعة من ستة عوامل اساسية يشرحها ويفصلها الدكتور رؤوف في مقاله : «عوامل الصدام الستة» .

حرب أم لا حرب ؟ هذا هو السؤال الذي يدور في رؤوس الجماهير العربية منذ هزيمة حزيران سنة ١٩٦٧ .

والسؤال نفسه بلغة الدبلوماسية هو حرب أم حل سياسي ؟

والاجابة واضحة من واقع الاحداث ومن الاستقلال النظري ، وهي : حرب حتماً ولا شك في ذلك . وهذه الاجابة تقوم على مجموعة من العوامل الواقعية التي تلعب دورها في منطقة الصراع العربي ـ الاسرائيلي .

وقد قسم كاتب المقال هذه العوامل الى مجموعتين : مجموعة **العوامل الايجابية** في الصراع ، **والعوامل السلبية** .

(١) الكاتب ـ العدد ٩٠ ـ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٨ ـ القاهرة .

أما العوامل الايجابية فهي بحسب بحسب أهميتها كالتالي :

١ - انطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة .

٢ - صمود الشعوب العربية .

٣ - الانجازات الموضوعية للثورة العربية قبل العدوان .

وهذه العوامل الثلاثة مترابطة الاثر والفعل ، وان كان العامل الاول منهاهو اخطر العوامل الستة كلها واكثرها ارتباطاً بالمعركة المقبلة .

انطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة :

كان انطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة على الارض المحتلة عقب هزيمة حزيران ، هو ارقى تعبير عن استمرار الثورة العربية وعدم انتكاسها . ونحن نتمسك بصفتها « كثورة » لا بمجرد « حركة فدائية » لأنها بهذه الصفة تكتسب ابعاداً اجتماعية اعمق من مجرد حركة مقاومة .

ومن حيث ظن العدو انه يصفي بعدوانه قضية فلسطين ، اذ به يعيدها الى اصحابها الحقيقيين . وفي غبار الهزيمة المرة للجيوش العسكرية العربية ، برزت قوى النضال الفلسطينية المسلحة بوصفها القوة الوحيدة التي تملك تاريخياً وقومياً حق تقرير مصير قضية فلسطين .

أما عن العوامل السلبية التي تحتم الصدام فيرى المؤلف ما يلي :

لسنا وحدنا الذين نقرر مصير المعركة المقبلة .. العدو ايضاً يلعب دوراً مماثلاً . ولابد ان ندرس معسكر العدو لكي نحدد الخطوات اللازمة لمواجهة اية خطوة يخطوها . وفي جبهة الاعداء عوامل تفرض هذا الصدام وتحتمه : بعضها رد فعل لمواقفنا ، وبعضها يثير رد الفعل عندنا . وهذه العوامل هي :

١ - تشدد العدو الامريكي وعدوانيته .

٢ - حماقة العدو الاسرائيلي وتورطه .

٣ - تحركات الرجعية العربية .

تشدد العدو الامريكي وعدوانيته

كانت تقديرات الامبرياليين هي ان هزيمة حزيران ستجعل الحكومات العربية تجثو امام امريكا ، وستقضي على العلاقات

مع المعسكر الاشتراكي . وتشدد الامريكيون في تأمين اسرائيل ودعمها اقتصادياً وعسكرياً وفي المحافل الدولية. بيد ان هذا التشدد كان له اثر عكسي . فقد كان من المقرر ان تؤدي الهزيمة العسكرية الى تقوية الاجنحة اليمينية ، ولكن تشدد امريكا وتصلبها قطع الطريق على كل هذه الاتجاهات . فازاء السياسة الامريكية المؤيدة لاسرائيل بشكل سافر لم يعد احد يستطيع ان يجاهر بصداقة امريكا .

لقد قطع التشدد الامريكي اذن الطريق امام دعاة التفاهم والحلول السلمية .

حماقة العدو وتورطه

ادارت نشوة النصر رأس اسرائيل واعمتها عنصريتها عن فهم الشعوب .

لنتخيل ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن اسرائيل بعد أن حققت انتصارها العسكري السريع انسحبت من تلقاء نفسها وابقت على شرم الشيخ والجولان والقدس فقط، وطلبت قوات دولية فيها . لوحدث ذلك لكسبت اسرائيل الرأي العام العالمي مصورة نفسها انها لم تعتد الا لكي تدافع عن نفسها كما تزعم .

ولكنها لم تفعل ، فقد أقامت حساباتها على أن رد فعل الهزيمة سيكمل مافعله الانتصار العسكري . وانتظرت عبثاً .

وكلما استمرت ايام الاحتلال ازداد تورط اسرائيل . وهي من حيث ارادت تصفية القضية زادتها تعقيداً والتهاباً . ومن المؤكد انه لايوجد حاكم اسرائيلي واحد يستطيع أن يواجه سكان اسرائيل اليوم باقتراح الانسحاب من القدس أو شرم الشيخ بأي ثمن . والقدس بالذات هي الصخرة التي ستحطم عليها كل محاولات التفاهم من أي جانب .. فلا يوجد حاكم عربي يجرؤ على التسليم بها ، أو حاكم اسرائيلي يتخلى عنها .. ولن يحسم الأمر الا السلاح .

* * *

تلك هي العوامل الستة التي تحتم الصدام المقبل مع اسرائيل . وهو حتمي حتمية الثورة نفسها . وعلينا على الدوام أن نؤكد ذلك ونتأكد منه .

نداء

ان لجنة تخليد ذكرى فقيد العروبة الاستاذ زكي الأرسوزي ، تدعو الأخوة المواطنين ، وبخاصة أصدقاء الفقيد ، ممن يمتلكون شيئاً من مخطوطاته أو رسائله أو تعليقات بخطه على هوامش الكتب أو يملكون نسخة من مؤلفاته المطبوعة بكميات قليلة والتي نفدت من الأسواق ، أن يوافوا اللجنة بهذه المواد ليساعدوها على انجاز مهمتها في تحقيق وطبع جميع مؤلفات الاستاذ زكي الأرسوزي (ما نشر منها في الماضي ، وما ظل مخطوطاً حتى اليوم) . وترجو اللجنة ارسال هذه المواد الى العنوان التالي :

لجنة تخليد ذكرى الفقيد زكي الأرسوزي – مجلة المعرفة – شارع الروضة – دمشق – الجمهورية العربية السورية .